زائر بعد منتصف الليل

رواية

مديحة أبو زيد

obeikan.com

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة الثانية منقحة
الكتاب : زائر بعد منتصف الليل
المؤلف : مديحة أبو زيد
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم و إخراج : صلاح بيصار
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع : ٢٠١٨ / ١٥٥٩
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 - 597 - 8

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

obeikan.com

الإهداء

إلى تلـــك التي عانت كثيراً ســـنوات طويلة ورغم ذلك واجهت العواصـــف والرياح فوقفت شـــامخة تتحدى من حـــاول أن يقهرها ويعيدها إلى الوراء ولم تنكســـر .

إلى صاحبة المجد العريق والحضارة الأصلية .

إلى مصر العظيمة .

مديحة أبو زيد

obeikan.com

obeikan.com

تسلل الليل فى رتابة، انتابنى بعض القلق، فى ركن ما بمكتبتى، لمحت كتاب تفسير الأحلام لفرويد، قرأت بنهم، فى محاولة للخلاص، جذبت أطراف النوم، هرب من عينى، بقيت ساهرة، إلى أن اقترب الليل من نهايته، فى لحظة انتفضت جالسة على حافة السرير، حيث أخواى النائمان بجوارى، شريف وصفية، الصمت يغلف المكان، فى حجرتنا الفسيحة القليلة الأثاث، فكرت فى استذكار دروسى، على أن أجتاز الامتحان هذا العام، لأحقق حلم حياتى، وألتحق بالجامعة، ولأحصل على عمل أعوض به والدىَّ وأخواتى بؤس السنين الطويلة.

لماذا أفكر فى كل هذه الأمور؟

والدى عامل بسيط، لايقدر على توفير ضروريات الحياة، يعاملنا بقسوة فى معظم الأحيان، يثور لأتفه الأسباب، وياحبذا لو وجدنى أمامه، يتطاير الشرر من عينيه، ويبدأ فى الشجار معى، بصفتى أكبر أخواتى، وعلىَّ أن أشارك فى تحمل المسئولية.

سحبت أطراف الغطاء، بطانية قديمة، ذات لون رمادى داكن، انتزعتها أمى من عمى، وكانت ضمن عهدته فى الجيش، جذب النوم عينى، بين صحوى مثقلة بالأفكار ورغبتى فى النعاس، استغرقنى حلم يقظة..

فى أرض خلاء، يكسوها الضباب، رأيت شجرة مخيفة، ذات أغصان ملتوية، وجزع طويل ونحيل، لونها بنى قاتم، تعرت

تماما من الأوراق، أطراف فروعها مدببة، يخال للرائى أن لها مخالب، التف حولها ثعبان ظل يزحف هابطاً، ملتويا، نازلاً بالتدريج مع صفير العاصفة، زحف نحوى اقترب منى، بقيت فى مكانى، فقدت القدرة على الحراك، ظل يقترب إلى أن لامس أصابع قدمى، شئ ساخن سال على ساقى، جريت نحو شباك الحجرة المطل على تلال الدراسة، فى محاولة للإفلات، كان القمر هلالا، يسبح فى الظلام، شعرت بالإرهاق، كمن بذل مجهوداً شاقاً، أطفأت الشعاع الضئيل المنبعث من مصباح الكيروسين، ناسية تحذيرات أمى..

— لا تناموا فى الظلام، هناك سكان غيرنا، يسكنون الأرض، كم حذرتنى الغجرية.

تذكرت لحظتها، لماذا حرصت أمى على إضاءة الحجرة ليلا، خاصة أثناء النوم، تجنبا لأذى الجان .

امتلأ جسدى بالرعب، شعرت بيد تغرس أظافرها فى كتفى، تهزنى بعنف.

تلوت فى همس آية الكرسى، لم أجد سوى صدر جدى، يحتوينى بين ذراعيه، يعتلى دائما دكتة الخشبية، فى ركن ما من الصالة، يظل ساهرا، يتلو آيات من الذكر الحكيم، ثم يخطف سويعات قليلة من الليل، ليريح بدنه.

ارتميت فى أحضانه، ليمتص دفء حنانه ما بى من خوف، بينما دموعى تسيل بغزارة، احتضنت يداه رأسى واستمر فى تلاوة القرآن:

(أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولافاجر..)

طبع قبلة على جبينى، ثم ربت على كتفى وسألنى العودة لفراشى، أسندت رأسى على كتفه ثم سألته بإلحاح:

– أرجوك يا جدى، ابق بجوارى حتى الصباح.

مسح دموعى بطرف منديله وقال بهدوء:

– اطمئنى، مجرد طوارق ليلية، وستحفظك الآية الكريمة بإذن الله.

ثم راح يتلوها مرات.

* * *

لحظة أن أصحو من النوم، أشعر بألم شديد فى مواقع حساسة من جسدى، أخال أن شخصا ما حاول الغوص فى أغوار هذا الجسد، فى الحال ينتابنى شعور بالغثيان ورغبة فى القىء، وكأن شيئا غريبا دخل أمعائى مثلما يحدث، عندما أصاب بمغص، وترغمنى أمى على بلع شربة زيت الخروع، والفرق بين الحالتين، هنا أكون على وعى بما تفعله لشفائى، أما الحالة السابقة فلا أشعر بها وكأنى فى عالم من اللاوعىً.

يدفعنى حيائى لإخفاء الألم، وفى لحظة مريرة أجدنى مضطرة للبوح وخاصة لأمى، ربما تخفف من توترى، تندهش وتدفعنى بنظرات مريبة، وفى الحال تقترب، وتعرى أسفل جسدى، تمرر كفها الغليظة على بطنى، ثم تقول فى اطمئنان:

– مجرد نزلة برد، ربما نسيت إغلاق الشباك أثناء النوم، فالجو يا ابنتى يزداد برودة ليلا، خصوصا بعد المنتصف وسقوط الندى قرب الفجر ويكون الهواء شديداً فى الخلاء.

أقتنع أحيانا بما تقوله، وفى أعماقى بركان يغلى، فأختى صفية تصغرنى بأعوام قليلة، والغريب أنها تنام بجوارى وتتعرى أحيانا، أستيقظ فجأة وأفرد عليها الغطاء، لكنها لا تشكو من أى ألم، وأسأل أمى عن السبب فترد فى أسى:

– جسدك حساس يا ماجدة، أصيبت بنزلة شعبية فى طفولتك، وطال العلاج إلى أن تم شفاؤك.

تمنيت لو أصدقها لكنى مؤمنة بحقيقة ما يحدث سواء فى الصيف أو الشتاء، ينتابنى نفس الشعور، مرة كل شهرين، كأنما أعيد ختانى من جديد، ففى الأيام الأولى للواقعة، أتعثر فى خطواتى، ويكاد الألم يفتك بى، وأسرع بتناول جرعات من الأدوية المسكنة ولا فائدة، ويظل الألم فى نفس الأماكن الحساسة من جسدى وخاصة تلك الحديقة المثلثة الأضلاع، يستمر ما يقرب من أسبوع، وتنتابنى رغبة فى القىء وشعور بالغثيان وثقل فى الرأس، وفقدان للشهية لدرجة اعتقادى بأن هذا الزائر الغريب ربما أعطانى مشروبا ما دون أن أدرى.

تقلقنى الحيرة ويخاصمنى النوم وأسأل تفسى مرارا..

– من هو ولماذا يفعل بى هذا؟

تؤرقنى الهواجس، ربما يصارعنى ذئب بشرى لا يعرف الرحمة، انقض بعد جوع، ليتنى أعرفه، أحيانا أِشعر بلذة رغم

شدة الألم، لحظة أن أتخيل رمزى ابن خالتى وقد زارنى ليلا ولعبنا عريس وعروسة، كما كان يحدث فى الصغر..

كنت فى نهاية المرحلة الابتدائية، وهو فى التعليم الإعدادى، وعندما تتشاجر أمى مع أبى تصحبنا إلى كفر الغلابة، حيث تقيم خالتى وأولادها وبعض الأقارب، نقضى بعض الأيام، تنسى فيها أمى ما لاقته من معاناة.

مع شروق الشمس، نذهب معا أنا وأخواى وأبناء خالتى، يتقدمهم رمزى، متجهين إلى المقاتة، وهى قطعة أرض مملوكة لزوج خالتى مساحتها قيراط، وقد زرعها بطيخا وشماما وخيارا، وهى كل ما يملك.

ذات صباح، وبينما نأكل فى العشة طعامنا المفضل (مرحرح مخلوط بالجبن القديم يطلق عليه هريسة)، قالت محروسة ابنة خالتى بخوف:

– انتبهوا أسمع صوتا غريبا، يشبه عواء الذئب، ويبدو أنه اختبأ فى غيط الذرة، وأعتقد أنه لن يتركنا، عليه العوض.

ملأنا الذعر، وتكومنا فى ركن ما بالعشة، اقترب منى رمزى وكاد أن يحتوينى بذراعيه وراح يهدىء من روِّعى، ثم سأل محروسة أن يجمعا أعواد الحطب وقش الأرز، وأشعلا فيها النار ليخاف الذئب ويهرب.

سرى الرعب فى أوصالى، جريت بأقصى سرعة فى محاولة للهرب البعض اختبأ والآخر راح يلاحقنى، ضللت الطريق، ألقيت نظرة خاطفة من خلفى، لم أجد سوى رمزى، ظل يعدو ورائى،

راحت خطواتى تسبق الريح إلى أن وجدت نفسى وسط جرن بالقرب من بعض دور الفلاحين، هدنى التعب، تعثرت خطواتى، جوقة من الكلاب راحت تعدو ورائى فى محاولة للإمساك بطرف فستانى الحرير، حيث راح يتطاير مع الهواء، كاشفا سيقانى، صرخت بأعلى صوتى، تسربت بعض الطمأنينة إلى نفسى، لحظة أن لمحت رمزى يرميها بالحجارة وكتل الطين الجافة، مما أدى إلى تفرقها، وفى الحال سقطت مغشيا علىَّ، حاول رمزى إفاقتى فلم يفلح فى البداية، نهض مسرعا واختفى لحظات ثم عاد بعد قليل، يحمل بعض الماء فى تجويف نصف بطيخة، نزعها من الأرض، وقد تأكد من مذاقها الحلو، ربت بيده على خدى، مسح وجهى ببعض الماء، وأسند ظهرى بيده الأخرى ليساعدنى على النهوض، أفقت، راح يتأملنى بشوق، ضمنى إلى صدره بحنان، لامست شفتاه شفتى، شعرت بنشوة، أنستنى ما بى من ألم.

ظلت تلك الواقعة تمر كالنسمة، بين الحين والآخر، إلى أن كبرت ووصلت لمرحلة التعليم الثانوى.

فكرت أن أربط بينها وبين الحلم، وهل لها علاقة بحكاية الشجرة والثعبان، سيطر علىَّ شعور بأنى ربما أكون مريضة نفسيا، وفى حاجة ماسة للعلاج، تذكرت كلام الغجرية لأمى:

— أصيبت ابنتك بلمسة أرضية، إثر صراخها فى الحمام وهى صبية.

كانت أمى تمشت شعرى الطويل والكثيف بفلاية من العظم، تعرينى بقوة وتضربنى أحيانا بكف يدها الغليظة على ظهرى،

إذا ما تمردت على شدة سخونة المياه أثناء الحموم، وخصوصا أن شقتنا مسكونة بالعفاريت والجان كما يقال، فهى تطل على مصبغة ملابس، وقد مات فيها بعض العمال حرقا.

ولاتقاء شر هؤلاء، بذل جدى جهدا مضنيا فى عمل (تحويطة) وهى على شكل بكرة من الورق، يبلغ طولها خمسة أمتار، كتب فيها بالزعفران بعض آيات من القرآن وكلمات أخرى، ربما من كتب مفاتيح الفرج .

فى تلك الليلة بقيت يقظة بجواره، رغم أننى تظاهرت بالنوم، فوق الدكة القديمة، أتابع بالحدس ما يدور حولى، منذ بدأ فى إعداد وسيلة التحصين هذه، إلى أن انتصف الليل، وقبل الفجر بقليل، وقد تأكد من عدم وجود أى شيء، ولا دابة نملة، قام بدفنها تحت البلاط الملاصق للشرفة الكبيرة والمطلة على حوش المصبغة.

بدأت أمى تشعر بالقلق، خوفا على مستقبلى من الضياع، لو استمرت حالتى المتدهورة هذه، وبالتالى تفقد الأسرة ما تأمله من وظيفة تخفف بها معاناة سنوات الحرمان، ولتثبت لكل من ينتقدها من عائلة أبى ويقلل من شأنها، أنها قادرة على أن تحقق مالم يتمكنوا من تحقيقه فى تربية أبنائهم وخاصة زوجة عمى، حيث تقيم فى نفس البيت، وتعد عليها خطواتها.

فى صباح أحد الأيام، اصطحبتنى لزيارة (أم شوقى) عرافة حينا حيث تقيم فى أحد الأزقة بشارع التبانة بالدرب الأحمر، وأمام مدخل بيتها أفزعتنى الدهشة، فقد تكدس العشرات من

النسوة والرجال وفى يد كل منهم شيئا ما ربما هدية أو بعض المتطلبات لزوم الحالة، شعرت بالخجل لكونى طالبة، وأساق هكذا دون إبداء أى رأى يدين هذا التخلف

فقط رغبتى فى المعرفة واكتشاف خبايا الأشياء المتعلقة بالسحر والشعوذة.

سرنا بصعوبة، نشق طريقنا وسط الحشود المنتشرة فى كل مكان، إلى أن اقتربنا، شدنى منظر حرك الشجن فى أعماقى، واختلطت ضحكاتى بالدموع، لحظة أن لمحت فتاة فى عمر الزهور، ترتدى فستانا أنيقا، يساير الموضة، كشف عن بعض مفاتن جسدها، وزينت رأسها بعصابة مزركشة بالترتر وفصوص اللولى، بدت للرائى كنجمة فى سماء الفن، ناهيك عن ملامح وجهها وقد بدا كبدر فى التمام.

بكت أمها وهى تشير إلى مجلة مفتوحة، أمسكت بها الفتاة بقوة وراحت تتأمل ما بين السطور، قالت بحزن:

— ابنتى البكر، تركت المدرسة الثانوية، لتتفرغ للتمثيل والغناء، أمنيتها أن تصبح ممثلة مشهورة أو مطربة، مجنونة بعبد الحليم حافظ، تتبع كل أخباره، وتحفظ معظم أغانيه، ترددها فى كل الأوقات، حاولت مقابلته أكثر من مرة فى حفلاته، ولم توفق. جئت بها للشيخة، ربما تعود لصوابها وتكمل تعليمها.

اقتربت من الفتاة، حاولت أن أقرأ بعض العناوين:

سعاد حسنى وعبد الحليم حافظ، ترى لماذا توقف قارب الحب؟

لأن عبد الحليم سيجرى عملية نهائية فى مستشفى بوسطن، يرتاح بعدها من أى نزيف يهدد حياته، ويصبح بعدها حصانا قادرا على الزواج، انشغلت سعاد حسنى بعدة أفلام، مضت أيام وعبد الحليم حافظ لايتزوج.

عبد الحليم قال: سعاد حسنى صديقة وزميلة ليس إلا.

مسحت الأم دموعها بمنديل قماش. ثم واصلت.. منذ إن مرض عبد الحليم وساءت صحته وابنتى لاتكف عن الهلوسة والبكاء، تعتقد أنه أملها فى الوصول إلى المجد .

تدخلت سيدة أخرى:

— مسكينة الصبية، يمكن ممسوسة من عفريت فنان، الصبر طيب، أم شوقى، ما شاء الله عليها، تقدر تطرده من جسدها، وتطلع عشرة غيره.

بعض النسوة والرجال صحن فى صوت واحد:

— شيخة مبروكة، أعمالها مفعولها أكيد.

فى لحظة انطلقت الفتاة فى الغناء وبصوت مشروخ:

— دمعتى ذاب جفنها

بسمتى مالها شفاه

صحوة الموت ما أرى

أم أرى غفوة الحياة

أين يأسى لقد مضى

obeikan.com

ومضت مقلة المنى

كل ما كان لم يكن

وأنا لم أعد أنا

جذبت الأم ابنتها برفق ليقتربا من حجرة العرافة، وبعدها ببضعة حالات، جاء دورى، أخذت أمى مكانها بجوار أم شوقى، همست فى أذنها بكلام لم أتبين معناه.

حجرة الشيخة محكمة الإغلاق، فى شقتها الواسعة بالدور الأرضى، فى بيت ذى طوابق جديدة، يقال إنها تمتلكه، استغلت هذا الدور لأعمال الخير كما تقول، تقضى فيه النهار وجزءا من الليل لاتغادره إلا بعد فحص آخر حالة.

مررت العرافة يدها، من فتحة صغيرة لستارة بيضاء، شغلت نصف الحجرة، لتصافح خادمها أو الوسيط، حيث يتلقى منها الطلبات دون أن يظهر، ثم يعرضها على المسئولين من بنى جنسه، ويعود متوجا بحلول أهل الصفوة.

تذكرت قول جدى فى مثل هذه الحالات:

واستعينوا بالقرآن فى قضاء حوائجكم.

لم يظهر من الوسيط سوى يد، ترتدى قفازا أبيض اللون.

ناولته الشيخة ورقة مطوية، سجلت فيها حالتى، فقد حصلت على الإعداية كما قال بعض روادها، بعد قليل، ناولها بعض الأحجبة والأعشاب، سألت أمى أن تقترب، وهمست لها:

– ابنتك يا حبة عينى، ممسوسة من جنى، يرغب فى الزواج منها ومتمسك بها، ومن الصعب أن يتخلى عنها، لأنه يعشقها.لكننا سنحاول وكله بأمره.

ارتعدت أطرافى، ربما يكون كلامها فيه شيء من الصواب، وإلا ماسبب الآلام المبرحة التى تؤرقنى، خاصة فى مواقع حساسة من جسدى، لكن لماذا وقع اختيار الجنى علىَّ، هل لأننى جذابة وخفيفة الظل كما قالت العرافة.

عدت لصوابى وحاولت طرد هذه الهواجس، فقد تفقدنى هويتى، وقبل أن نغادر بيت الشيخة، ناولت أمى حجابا وورقة صغيرة مطوية ثم قالت بصوت منخفض:

– الحجاب لايفارق ثديها، اشبكيه بدبوس فى السوتيان، والورقة الثانية، بها حبات من سفوف الأصول، تبلع قدر ملعقة شاى صباحا ومثلها قبل النوم فى المساء.

أخفت أمى الورقتين بحذر فى صرة نقودها القماش، تحفظها دائما فى صدرها وقالت:

– طلباتك أوامر يا أم شوقى، يا غالية، ربنا يجعل الشفاء على يديك.

واصلت العرافة وهى تمعن النظر فى صرة الفلوس:

– لاتنام فى الأماكن المظلمة، لاترتدى الملابس السوداء، خاصة الداخلية، فالجان المتيم بها يحب الفرفشة.

وقبل أن تتأهب أمى لمغادرة وكر الشيخة، ناولتها بضعة وريقات من فئة الخمسين قرشا، ويبدو أنها مصروف البيت لبضعة أيام.

اقتربنا من باب الحجرة المغلق، نادت الشيخة على منظم الجلسة ليفتح وقالت لأمي:

– لاتنسى البخور المحوِّج، أطلقيه دائما، وخاصة يوم الجمعة، وقت الأذان، لحظة شعورها بالألم، بداخله عين العفريت والشابة، والمستكة وحبة البركة، وحتة من بخور الجاو، مفعوله أكيد، وستشفى بأمر الله.

* * *

انسابت دموعى بغزارة، بينما أقطع الطريق من حارتنا بشارع السيدة (فاطمة النبوية)إلى حى الحلمية الجديدة، حيث مقر مدرستى الثانوية، شعرت أن مصيرا مجهولا ينتظرنى، ومما عمق الحزن فى نفسى وأقلقنى اتهام أبى لى بالمرض النفسى.ولابد من علاجى فى مصحة نفسية إثر علمه بما فعلته أمى لشفائى وزيارتها للعرافة، حيث مضى ما يقرب من أسبوع لاتطهو طعاما، كما كانت تفعل يوميا، مما أثار غضب أبى وراح يلعن اليوم الذى تزوجها فيه، واتهمها بالسعى لخراب البيت وتشريد الأولاد، فكيف تضيع مصروف البيت لسبعة أيام قادمة، وفرها بعد مشقة وعناء، لاعتقادها الخاطيء فى الدجل والشعوزة؟!

حفر الكلام هذا مجرى فى نفسى من الألم، وشعرت بضآلة حجمى، ومما حيرنى أكثر كيف أرفض لأمى طلبا وهى التى تناضل من أجلنا وتسعى لشفائى، ولو اختارت الطريق الخطأ، وإذا

ماجادلتها تحاول إقناعى بأن السحر مذكور فى القرآن، ومفعوله أكيد، وأيضا الجان والشياطين، فكيف أخرج من هذا الأسر، وبينما أفكر فى كل هذا، سمعت وقع خطوات، التفت ورائى لأجد مدرس اللغة العربية، أخرج من حقيبته حافظة نقود وقال مشفقا..

خذى كل ما بها وكفى عن البكاء، اقترب، ربت على كتفى ثم واصل:

— الفلوس يا ابنتى ليست كل شيء، فقط وسيلة للحصول على متطلبات الحياة، وهناك عشرات من البشر يملكون مال قارون لكنهم تعساء

بينما العديد من البشر لايجدون القوت الضرورى، ويشعرون بالسعادة.

أجبته بقلق:

— أخشى الامتحان وأنا أمر بأزمة نفسية لاأكثر ولا أقل.

أنصت إلىَّ ثم أجاب:

— لكل مجتهد نصيب، ولا يضيع الله أجر من أحسن عملا.

جذبنى من يدى وسرنا بضعة خطوات إلى حديقة المدرسة وواصل:

— لنتحدث عن برنامج الحفل..

سألته بدهشة:

— أى حفل؟

- ستقيم المدرسة حفلها السنوى، لتكريم المتفوقات من الطالبات ومدرسى الفصول، وضيوف الشرف هم صفوة الأدباء، والمدرسة تعقد عليك الآمال، فأنت الخطيبة البارعة والمتحدثة اللبقة.

سقطت أشعة الشمس، متخللة الأشجار وأغصان الزهور، تسرب الدفء إلى جسدى، مما خفف حدة القلق، وانسحب الخوف من نفسي

ملأ النور عينى، انتابنى شعور بالأمل وسألته بشغف:

- من هم الضيوف يا أستاذ أمين؟

- الشاعر المتألق، (فاروق شوشة)، والأديبة الرائعة والمناضلة، (لطيفة الزيات).

نسيت الحزن لحظات، فكرت فى المستقبل، وهل سأصبح من زمرة هؤلاء المشاهير من رواد الأدب والثقافة؟ شردت قليلا بينما أستعيد بعض الذكريات، تمنيت لو يشاركنى رمزى هذا اللقاء، فلديه هو الآخر استعداد ليصبح أديبا، حيث يمتلك أسلوبا شاعريا رقيقا.

أذكر كلماته العذبة لحظة أن التقينا فى الوحدة الصحية بقريتنا، أثناء الإجازة الصيفية، وكنت لحظتها أعالج من مغص مفاجيء.

اقترب منى، قال هامسا وقد تشابكت الأيدي:

- سلامتك من المرض.

- مجرد ألم بسيط وسيزول بعد قليل.

قال هامسا:

– لدى خبر قد يفرحك؟

– هات ما عندك.

– حصلت على الثانوية العامة بتفوق، والتحقت بكلية الهندسة، جامعة القاهرة، سأكون دائما بالقرب منك.

قلت محدثة نفسى بصوت منخفض:

– أريد أن أشفى أولا.

سألنى بدهشة ربما تسرب إلى سمعه بعض ما قلته:

– ماذا بك، ألم يسرك هذا الخبر؟

– لا شيء، ألف مبروك.

نادى عليه شقيقه، حيث يعمل ممرضا بالوحدة الصحية، قال بلهجة سريعة وقلق:

– لاتنسَ السفر غدا إلى القاهرة

ناولنى ورقة صغيرة مطوية، وأسرع بمغادرة المكان، افترشت بعض الحشائش وقرأت بإمعان..

أبحث عنك فى دفتر أوراقى المنسية، أجوب الليالى، أفتش عنك فى القرى والنجوع، عبر جسور الأشواق فى دنيا العشاق، أحلق فى الآفاق، أخال وجهك فى قرص الشمس الدافيء، أغوص فى أعماق البحار، أبحث عنك وسط اللاليء والأصداف، أتسلق التلال وأعالى الجبال، علِّى أراك فى وجه القمر النورانى، وأعود

obeikan.com

لحظة أن تخدعنى الحقيقة، أنتظر طويلا وسط المزارع وعلى شاطيء الترعة التى شهدت لقاءاتنا الرائعة، على ألمح طيفك بين صفوف القرويات العائدات من الحقول أو من نهر بلدنا الكبير، وهن يحملن جرارات المياه وقد امتلأت لآخرها، ويغنين فى الصباح الباكر، آه ياليل ياقمر، والمانجه طابت ع الشجر.

* * *

أعددت قصيدة خصيصا للحفل، لحظة أن سمعها مدرس اللغة العربية فرح بها كثيرا، ربت على كتفى ثم سألني:

— من أين لك هذا الشعر الجميل؟

— لاتجامل يا أستاذ، قلتها بانتشاء.

— ينتظرك يا ابنتى مستقبلا باهرا

أمنيتى أن أصبح صاحبة قلم حر جريء، تعرى إبداعاتى الواقع الرديء، أتناول قضايا الناس ومشاكلهم، وخاصة البسطاء منهم والمهمشين.

اقترب، لمس كتفى برفق وقال:

— إن شاء الله تنالين كل ما ترغبين، طالما تعرفين هذا الكلام البليغ، فمن طلب العلا يعلو.

ساد صمت، سألته بخوف:

— أرجو أن تعفينى من تقديم البرنامج نظرا لظروفى النفسية.

قال بسرور:

– ثقتى فيك كبيرة، أنت أحسن تلميذة فى المدرسة كلها، ولا تنسى أن تقدمى الناظرة فى البداية، لترحب بالضيوف، وبعدها واصلى تقديم البرنامج، ولا تنسى الفقرة الخاصة بفريق المدرسة للتمثيل، فالمسرحية التى سيتم عرضها قصيرة، لاتزيد عن الفصل الواحد، لكنها مواكبة للمناخ العام الذى نعيشه، فالحرب على الأبواب، قدمى هذه الفقرة بحماس.

أجبته بأسى:

– نعم، أرض سينا الحبيبة، هذا هو عنوانها، وسأقوم بالبطولة، وللعلم كتبت قصيدة فى المناسبة، وسألقى جزءا منها فى ختام الحفل.

* * *

حان ميعاد الحفل، تسرب الخوف إلى نفسى، رغم خبرتى فى الإذاعة المدرسية، إبان المرحلة الإعدادية.

على خشبة المسرح المدرسى، وقفت أمام الميكروفون، توافد الكثير من أولياء الأمور، فقد امتلأت المقاعد عن آخرها، وانتشرت الضوضاء رغم حرص ضابطات الأمن على النظام، لحظة رفع الستار، لمحت مدرس اللغة العربية، أخذ مكانه بالقرب منى وراح يحثنى على الشجاعة والصمود، مما دفعنى لإلقاء القصيدة بحماس:

لقاء فريد مع الشمس يأتي

يبعث فينا عطور الحياة

لسان فصيح لشاعر عظيم

وفكر ثرى لبنت النضال

تثمر فينا زهور الأمل

ساد الصالة تصفيق حاد، عقب الانتهاء من إلقاء القصيدة، ، ألقيت نظرة خاطفة حيث تجلس الناظرة، فى الصفوف الأولى، بجوار الضيوف، لمحتها تبتسم وهى تنظر لى، مما بعث الطمأنينة فى نفسى، وحفزنى على مواصلة تقديم البرنامج، كما أثرت المسرحية أيضا فى نفوس الجمهور المتلقى، وامتلأت الصالة بالهتافات، تطالب بالنصر واسترداد الجزء الغالى من أرض سيناء الحبيبة، وفى الختام ألقيت باقى القصيدة الوطنية:

ما زال هنالك خط صمود

ترسمه أرواح الشهداء

تتجاوب صيحات القتلى

تتصاعد أنات الجرحى

وتدق على أبواب الأسر

تحمل شمعة ميلاد الحرية،

فى مأدبة القمع

فالويل، الويل،

لمن يكتم أنفاس الفجر

ويغتال الحرية

إلى أن انصرف معظم الحاضرين، وهدأت القاعة بعض الشيء، استدعتنى الناظرة، وقفت خائفة، أرتجف، ربما تحاسبنى على

obeikan.com

بعض الأخطاء، اقتربت، صافحتنى بحرارة، طبعت قبلة على جبينى، وقالت وهى تمسك كتفى بحنان:

— أحسنت يا ابنتى.

— قدمتنى للأديبين الكبيرين، صافحنى كل منهما بحفاوة، وأثنى على ما قدمت، اقترب مدرس اللغة العربية، وقف قبالة الناظرة وقال بانتشاء:

— ماجدة تلميذة مجتهدة وأديبة واعدة، سيصبح لها شأن فى عالم الأدب لما تتمتع به من حس مرهف وعاطفة جياشة.

أضافت الناظرة وهى تربت على كتفى :

— أمامك يا ابنتى مشوار طويل، مليء بالكفاح، هو طريق كل أديب طموح.

قال الشاعر (فاروق شوشة) موجها كلامه للأستاذ أمين:

— خذ بالك منها يا أستاذ، إنها فى حاجة إلى رعاية لتتفتح لديها زهور الشعر

أضافت الكاتبة (لطيفة الزيات):

— بالفعل ينتظرها مستقبل باهر، إذا ما تبنتها أيد أمينة.

تسرب كلامهم جميعا، كالسحر إلى مسمعى، أحسست أن الحلم الذي ظل يراودنى سنوات، فى سبيله للنهوض مع شروق شمس اليوم.

بالأمس رأيت أننى أمشط شعرى الملبد، وكنت بين اليقظة والمنام، فى لحظة، تحول لضفيرة طويلة، ذهبية اللون، وسميكة، بشرنى جدى، (الشيخ الصاوي) أن مستقبلا مرموقا ينتظرنى.

قبل أن يغادر الضيفان باب المدرسة، أسرعت بفتح حقيبتى للبحث عن الأتوجراف، وسألت كلا من الكاتبين أن يسجل لى كلمة للذكرى، أخذت طريقى إلى مكتبة المدرسة، لأقرأ وقد التف حولى العشرات من الطالبات، حاولت كل منهن أن تقرأ بإمعان ما بين السطور، وسط جو من الضجيج والتهليل:

— تقدمى بخطى ثابتة لاتخيفك الأشواك.

بعض الطالبات صحن:

— أما رأى الشاعر الرقيق، ذو الصوت الرشيق:

— تفتحى كزهرة ندية، تبتسم دائما للشروق

* * *

تسلل الأمل إلى نفسى كأشعة الشمس، لحظة أن تشرق فى الصباح تتخلل النوافذ والشرفات، تملأ الجو بالحيوية والنشاط.

بدأت أتردد على مكتبة المدرسة، أقرأ لبعض المشاهير من الكتاب، نجيب محفوظ، طه حسين، محمد عبد الحليم عبد الله، سهير القلماوى وغيرهم، رغم الامتحان الذى اقتربت أيامه، أحاطتنى أمى برعايتها وطريقتها الفطرية، حكيت لها تفاصيل الحفل، بدا القلق على وجهها وقالت بخوف:

– أخفضى من صوتك، لو سمعتك جارتنا الحقود، لسببت لك الأذى، وليس ببعيد أن تدفن لك عملا تحت عتبة باب البيت الكبير، لتدوسى عليه كل يوم .وأنت فى طريقك للجامعة وأثناء عودتك.

أم سيد ست طيبة، تقبلنى دائما وتطبطب علىَّ.

– ما زلت صغيرة لاتعرفين شيئا.

لحظات واتجهت أمى إلى المطبخ، ثم عادت مسرعة وفى يدها وعاء من الفخار يستعمله أبى أثناء تدخينه للجوزة، أشعلت فيه بعض قطع الفحم، ونثرت فوقه البخور، ثم راحت تتمتم بكلمات، بينما البخور يعبق الجو برائحته النفاذة.

«رقيتك واسترقيتك من عين اللى شافوك ونضروك ولا صلوش على النبى، رقيتك من عين فتحية، فى الشقة الشرقية، ومن عين نبوية فى الناحية القبلية، ومن عين أم سيد المفترية.

قلت لها بدهشة بينما أزيح الوعاء بعيدا:

للأسف، تحولنا لمجاذيب السيدة (فاطمة النبوية) (أم الأيتام) هى قريبة منا ولا يفصلنا عنها سوى هذا الزقاق، ولايعنى هذا أن نصبح من الدراويش.

أجابت بابتسامة ساذجة:

بركاتك يا للى جدك الحسين، ملسى عليها، خدى بالك منها، ولك بإذن الله دستة شمع، نولعها فى المقام، وسبت عيش وفول، يوزع على أيتام بابك، لو نجحت فى الثانوية.

قلت لها بدهشة:

– جدى يقرأ لى القرآن وهذا يكفى.

صرخت فى وجهى وهى تهز كتفى بقوة..

– كفى عن هذيانك وإلا تعرضت للأذى، لاتنسى أننا فى رحاب أولياء الله الصالحين، وهم يحرسوننا بعون المولى.

اتجهت أمى إلى الحجرة، حيث يجلس أخواى وقد تأكدت من احتراق البخور تماما، أخذت طريقى إلى الشرفة المطلة على تلال الدراسة، بدأ الغروب ينتشر ويغلف المكان بلونه الرمادى، شعرت أن نفسى تتوحد معه، لحظات وشدت انتباهى أصوات عالية، وصرخات، ضجيج منبعث من الحجرة المجاورة، كانت أختى تصرخ فى وجه أمي:

– رفضوا تسليمى كتب المدرسة، لم أدفع المصاريف، أنا فى أولى تجارة، حرام عليكم.

قالت أمى بأسى:

– الصبر طيب يا صفية، فى الصباح يحلها حلال العقد، لما أشرح حالنا للمشرفة الاجتماعية، يمكن ربنا يحنن قلبها وتعفيك، وإلا مافيش قدامنا إلا أم بدوى الدلالة.

ويرتفع صوت أخى شريف:

– نفسى آكل لحم وفراخ، مثل فريد زميلى فى المدرسة.

ترد أمى بقوة..

– مالـه الفـول المدمـس، مـن رضـى بقليلـه عـاش، فيـه بروتـين ومغـذى.

يلاحقها أخى ساخرا وبصوت عال:

– كيـف أفهـم الـدرس وانجـح فـى الإعداديـة ولا آكل إلا الفـول، الفـول يربـى العجـول.

– أنا جوعان، جوعان يا ناس.

استدعتنى أمـى وقـد رمقتنـى بنظـرات ذات مغـزى، وسـألتنى أن أبحـث عـن عمـل بالثانويـة، فوالدنـا عامـل بسـيط، لايحصـل إلا علـى القـوت الضـرورى.

ينتابنى شعور غريب وأود لو أصرخ فى وجهها:

– لاتقولى أبـى، إنـه لايشـعر بوجودنـا، ولا أشـعر بـه كأب، يعـرف متطلبـات أولاده ويلبيهـا، وإذا عجـز يطيـب خاطرهـم بكلمـة، تمسـح آلامهـم، دائمـا أشـعر أنـه غريـب، ولا تربطنـى بـه أيـة صلـة، يأتـى العيـد وراء العيـد ولا يفكـر فـى شـراء فسـتان لى، ولا حتـى شـراب للمدرسـة.

* * *

فـى العـام الماضـى بكيـت بحرقـة، لم يكـن لدى فسـتان جديـد، ولم تبتـاع أمـى أيـة ملابـس لى، بحجـة ضيـق اليـد، فمـا تحصـل عليـه من نقـود، لايكفـى سـوى لقمـة العيـش، ناولتنـى بعـض النقـود لابتيـاع بعـض متطلبـات البيـت مـن أهمهـا، بخـور مـن عنـد العطـار، حيـث يقـع الحـان أمـام جامـع الصـالح طلائـع، بجـوار بوابـة المتـولى، أثنـاء

عودتى وقد أذن العصر، بينما أسرع الخطى، عائدة للبيت، خوفا من عقاب أمي إذا بقدمى اليمنى تصطدم بطوبة صغيرة، آلمتنى كثيرا، وانكفأت على وجهى، أصابنى بعض الدوار، جلست على الرصيف، أفقت لأجدنى أمام رزمة من النقود، كدت أصرخ من الفرحة، منعتني عيون الغرباء، رحت أجمع ما تناثر منها، جزء منها ورقى والآخر فضى.

ملأ السرور وجه أمى، لحظة أن لمحت النقود، لحظات وارتسم الخوف على وجهها، سألتنى عن مصدرها، خشيت أن تكون مسروقة، فالحرمان والفقر غالبا يكون سبب البلاء، ظلت تلح ولم يهدأ لها بال، أقسمت لها بالقرآن وبالرسول ورب الكون، أننى عثرت عليها بجوار الرصيف، وانتظرت أن يسأل عنها أحد المارة فلم أجد. أدركت لحظتها أن الله من علينا بها، ليفك كربتنا، أحصتها بدقة وقالت: مبلغ يكفى كسوة العيد لك ولأخويك، فستانين وبنطلون، والباقى نعمل به الكعك، ساد صمت، تمتمت أمي:

— منذ أيام مرت غجرية بحارتنا، سألتها أن تضرب الودع وتقرأ الطالع، صدقت عندما قالت:

— أبشرى يا أم شريف، لك إبنة، السعد خدامها، لكن عنيدة.

تأملت ملامح وجهها الحزين ثم قلت.

— إلى متى نظل نحصل على إعانات أم بدوى وتتحملين وحدك الفضيحة، ويا ويلنا إذا لم يدفع لها القسط الشهرى، يعلو صوتها كالطبل البلدى، يوقظ القطط والكلاب النعسانة بل والحشرات النائمة، والشيء الذى يؤثر فىَّ أكثر هو حرمانى

من المصروف، فهذا الرجل الذى يدعى أنه أبى، لاأحتمل رؤيته أو أسمع صوته، لماذا يعطى صفية وشريف فقط، وأنا ألست ابنته مثلهما؟! كل صباح تحصل أختى على تعريفة وأخى يأخذ قرش صاغ، والأمرُّ من ذلك معاملته القاسية لى، لايخاطبنى إلا بتكشيرة تبرز أنيابه، ودائما يسألنى أن أبحث على وظيفة، لأننى أصبحت عالة على الأسرة، ولا يهدأ لى بال حتى أجدها، بحجة أن الكساد سيعم البلد، فالحرب على الأبواب، وسيتم سحب معظم السلع، لتوزع على الجيش، وهو أول من سيقع عليه الضرر، فحتما ستغلق محلات ومغالق الخشب، وسيجند معظم أصحابها والعاملون بها من الشباب والرجال للدفاع عن الوطن.

يا له من أب ثقيل الظل على نفسى، فلا يذكر لنا إلا ما يقلق راحتنا ولا يتفاءل مطلقا بيوم مشرق ولو من باب الشعور بالأمل حتى ولو كان أملا كاذبا، وترد أمى فى محاولة للدفاع:

— أبوك فى السوق، يحتك بكبار التجار وأصحاب المهن، ويتعامل معهم واللى إيده يا بنتى فى الميه غير اللى إيده فى النار.

* * *

حاولت أن أطرد كل هذه المخاوف، ولم يعد يشغلنى سوى استذكار دروسى، للحصول على الشهادة بتفوق، فالإلتحاق بالجامعة حلم بات يروادنى ليل نهار، يروى بذور الأمل، التى غرست لحظة لقائى بكبار الأدباء فى الحفل المدرسى.

استمرت رعاية أمى لى بأساليبها البدائية، ورغم محاولاتها الساذجة إلا أنها تشعرنى بالأمان، تطلق البخور أحيانا، لحظة أن ترانى ساهرة، أنهل من نبع المعرفة، تقرأ التعاويذ معتقدة أن أم سيد، جارتنا، تلك المرأة النحيفة ذات العيون الصفراء، المدورة، هكذا نعتتها أمى، تقيم فى حجرة معتمة بالدور الأرضى، لبيتنا الآيل للسقوط، جمعت فيها كل متطلبات الحياة من مأكل وملبس وبعض قطع الأثاث القديم، تطلق شرارة الحسد، كلما رأتنى أمر من أمام عتبة بابها يوميا، وخاصة أن أولادها الثلاثة لاحول لهم ولا قوة، يقترب سن ابنها البكر من سنى، حصل فقط على الإعدادية، والتحق بالتدريب المهنى، بينما البنتان ما زالتا فى التعليم الإعدادى، تكافح بكل جهدها، لترى واحدة فقط فى مستواى، ورغم تحذيرات أمى وحرصها من ألاعيبها فلا أنسى فضل هذه الجارة علىَّ، فلولاها لحرمت من الالتحاق بالمدرسة، وربما بقيت بدون تعليم إلى مالا نهاية، أذكر أيام تقديم الأوراق للمدرسة الإبتدائية، لم تكن أمى تعلم بالمواعيد، جاءتها أم سيد فى الصباح الباكر وسألتها أن تقدم لى مع ابنها، لحظتها شكرتها أمى وأهدتها بعض الأطعمة الريفية وقد جاءت بها جدتى من القرية كالفطير المشلتت والجبن القديم وغيرهما، وتبرر أمى نسيانها للمشاكل التى تنشأ دائما بينها وبين أبى وخاصة ما يتعلق بالتعليم، فقد سأله أكثر من مرة أن تصرف النظر عن تعليم البنات لأنه غير قادر على النفقات ويكفى تعليم الولد، وفى إمكانها أن تلحق كل منا بمهنة كالعمل فى مصنع للحلوى أو للملابس، وكان هذا الكلام يستفزها وتتشاجر معه، وتصر على تعليمنا حتى لو اضطرت للاستدانة من أصحاب

المروءة، كالسيدة أم بدوى (المرابية)، ولم يكن يقدر على منعها، طالما أنه لن يتحمل النفقات، ورغم معاملته القاسية هذه لنا كانت أحيانا تدافع عنه، وتشرح لنا أنه فقير، ولا يقدر على مسئوليات التعليم، ففى بداية حياتها معه، وقبل أن نر الدنيا اضطرت أن تبيع شبكتها والكردان الذهب الذى أهداه لها جدى أى والدها هدية زواجها، ليبتاع والدنا الحان الذى يعمل به حاليا.

ولأغير مجرى الحديث المأساوى هذا سألت أمى عن سبب كراهيتها لأم سيد رغم نيتها الصافية نحونا، قالت: ناس من معارفى وأصحابى شافوها أكثر من مرة عند الإمام الشافعى، وبالقرب من أحواش القرافة، تجمع التراب، ويمكن يكون فيه عضم الميتين، وتنثره على عتبة باب البيت الخارجى، وانت طبعا تدوسين عليه مرتين فى اليوم، هى امرأة حقود، حاولت أن أبعد عن أمى الظنون وقلت لها:

- إن بعض الظن إثم، ربما تزور أقاربها المتوفين.
- أبوها دفن فى بلدتهم فى الزقازيق.
- أمها ماتت منذ فترة قصيرة.

بدا الغضب على ملامح أمى وصرخت فى وجهى:

- قومى ذاكرى دروسك، ولا شأن لك بكل هذا.

لم يكن أبى راضيا عما تفعله أمى من سلوكها الغريب هذا، ودائما يسخر من تصرفاتها، ويصفها بالشذوذ، ويوبخها بصوته الجهوري:

– كفى عما تفعلين، بمعتقداتك الهدامة هذه، تغرسين فى نفسها الخرافة ويكفى أنها مريضة نفسيا

أحيانا تنتابه لحظة ضيق، يسرع بإلقاء المبخرة الفخار على الأرض، فى الحال تثور أمى وتهدده بأنها ستترك له الجمل بما حمل، وتسافر إلى قريتنا، تنعم بالهدوء وراحة البال، بصحبة أختها وأبنائها فى كفر الغلابة، فى لحظة يهجر المكان تجنبا لعنادها، وخوفا أن يتكرر ما حدث منذ شهور؛ ففى إحدى المرات تشاجرا حول مصروف البيت وضآلته حيث لايكفى القوت الضرورى، فمن أين لها الكساء وملابس المدرسة، ومصاريف التعليم واحتدم الخلاف بينهما وكاد أن يرمى عليها يمين الطلاق لكنه استبدله بأن ألقى فى وجهها بكوب الشاى الساخن مما أحدث جرحا عميقا فى جبهتها، كان فى حاجة إلى غرزتين ليلم الجرح، وعندما رأى الدم يسيل من وجهها انتابه الذعر وغادر البيت على الفور، وقبل أن أضمد لها الجرح قررت أن أبلغ عنه فى قسم الدرب الأحمر، وليعرف أن الله حق، وتكون هذه الحادثة المرة الأولى والأخيرة، ولا يتطاول عليها مرة أخرى، وكفى ما تعانيه من أجلنا، ولكنها رفضت، خوفا على مستقبلنا لو تم سجنه لاقدر الله، وخوفا أيضا من الفضيحة بين الجيران، وقالت بعد أن ضمدت لها الجرح، وقد طلبت أن أكبسه بحفنة من البن:

– سأتحمل كل ما يحدث لى من أذى، حتى أرى فى يد كل منكم شهادة، تعينه على مصائب الزمن.

لحظتها قبلتها فى يدها وألقيت برأسى على صدرها وقلت لها:

– يا حبيبتى يا أمى، ربنا ما يحرمنا منك، وسوف أحقق لك كل ما تريدين.

– الشهادة يا ابنتى، ارفعى راسنا فى السما.

* * *

ذات مساء، سهرت كثيرا لاستذكار دروسى، لحظة أن شعرت بالإرهاق توجهت لسريرى، بينما الليل يفرد ستائره، ليكسو كل أركان شقتنا، اللهم إلا بصيص من ضوء خافت، انبعث من مصباح الكيروسين، بعث فى نفسى الطمأنينة، واختفت أشباح المصبغة، ساد سكون تام، أمى وأخوتى راحوا فى سبات عميق، ما أن خطف النوم عينى، شعرت بيد خشنة، تتلمس مواقع حساسة من جسدى، نهضت على الفور، أدرت مفتاح المصباح، إذا بي ألمح شبحا لرجل، يقترب شكله من ملامح أبى، اندفع مهرولة فى اتجاه الحجرة الثانية، والمطلة على الزقاق، جريت لألحق به، فى لمح البرق، فتح الشباك وراح يتأمل ما يدور فى الخلاء، سألته على الفور:

– ماذا تفعل فى هذا الوقت المتأخر؟

قال بغضب:

– أشم بعض الهواء

سألته بدهشة:

– كيف ولا يوجد صريخ ابن يومين؟

ارتفع صوته قليلا، ثم أجاب بانفعال:

– بيتى وانا حر فيه.

كان لهذه الواقعة، تأثير سيء على نفسى، ظلت تؤلمنى لفترة، وأبعدتنى عنه أكثر، بل ودفعتنى للحرص، والتعامل معه بحذر وتجنب الكلام معه أيضا، ولم أصرح لأمى، تجنبا لجرح مشاعرها، وكفى ما تعانيه من عشرتها معه، وهناك احتمال ألا تصدقنى، وتتهمنى بالهلوسة، لست فى حاجة لمزيد من التوتر والقلق، فالامتحان على الأبواب.

لم أجد سوى صدر جدى الحنون، رغم غيابه لأيام طويلة، فى السفر والترحال، يعالج المسوسين بالقرآن، ويشارك بفاعلية فى الموالد، ويزور الأضرحة، ولا تفوته حضرة الدراويش، ولا ذكر المتصوفة، وما أن تنتهى جولاته، يعود حاملا بعض الزاد، من طعام وقليل من النقود.

أنتظره بفارغ الصبر، يمنعنى حيائى، أن أشكو له ما يؤلمنى، أحكى فقط عن الأشباح التى تطاردنى، تشفينى ابتهالاته، تخلصنى كلماته الروحانية، من أدران القلق والخوف، أشعر أنه يعلو فوق مستوى البشر، أراه رمزا، يحتل موقعا فريدا فى السماء، ربما نجما ساطعا، لا يغيب ضوؤه أبدا رغم جولاته وسفرياته العديدة، يتحرك فى صمت، ينير لكل البسطاء، يخلصهم مما يعتريهم من هلاوس، فى الغالب يكون مبعثها الفقر والجهل والمرض.

لحظة أن يعود، يبقى ساهرا معى، إلى أن تزول الغمة، يقرأ القرآن لطرد الجان والشياطين، يناولنى بعض النقود ويقول:

– لا تغضبى يا صاحبة القلم الرفيع، مجرد هواجس ليلية،

ستزول بسحر القرآن وعظمته.

* * *

اقترب الليل من المنتصف، تسلل الخوف إلى نفسى، بقيت ساهرة، منذ غياب جدى، والأرق لايفارقنى، ترك فراغا لايملؤه أحد، وغدا المكان خاويا، فتلاوته للقرآن ليلا، تبعث فينا الأمان، وتعبق الشقة بعطر الروحانية، لقد مل معاملة أبى الرديئة، وعدم رعايته له، ولم يفكرفى السؤال عنه ولو مرة، لدرجة أننى بدأت أشك، فى عدم بنوة أبى لجدى.

أغلقت جفنى فى محاولة للنوم، والتخلص من القلق الذى يؤرقنى، وخاصة أثناء غياب جدى، فقد غرق الجميع فى نهر من النعاس، وانتشر الهدوء فى كل ركن بالشقة، ورغم ذلك لم أنم، وزاد الخوف فى نفسى، حيث توقعت مهاجمة نفس الشبح ، حيث اعتاد مطاردتى، من حين لآخر، يتسلل عبر الظلام، ليمارس لعبته الدنيئة، يكتم أنفاسى أو يخدرنى، ثم ينقض كالأسد الجائع.

نهضت للبحث عن وسيلة لقتل الفراغ، وطرد الهواجس، وقعت عينى على مجلة المصور، ابتعتها منذ أيام، ولم أقرأ حتى العناوين، شدتنى بعض السطور المثيرة، فعمقت الأسى فى نفسى..

زارها بعد الغروب، رحبت به، كان صديقا لزوجها المسافر، سألته أن يحتسى معها الشاى، فى غفلة منها، دس لها المخدر، اغتصبها، ثم سرق مصوغاتها، لحظة أن صرخ طفلها الرضيع، قام بذبحه، حتى لايفتضح أمره، بعد منتصف الليل، وضع الجثة

فى جوال، وألقى بها فى مصرف قريب من بيت المجنى عليها.

لم أحتمل بشاعة ما قرأت، ألقيت المجلة جانبا، وتوجهت للشرفة المطلة على جبال الدراسة، لأستنشق بعض الهواء، حاولت النوم، لتخف حدة المعاناة، فى لحظة خاطفة، خلت أننى وسط دائرة من الأطفال، يرتدون ملابس بيضاء، يرددون بعض الأغانى الجنائزية.

نهضت على الفور، والخوف يزلزل كيانى، الذئب المفترس، ربما يقتلنى هذه المرة، ليخفى معالم الجريمة، أدرت مصباح الكيروسين، ليزداد اشعالا، تسللت بخطى وئيدة نحو حجرة نوم والدى، لاحظت أن أبى لاينام بجوار أمى، علت الدهشة وجهى، كان ممددا جسده البدين، فوق كنبة قديمة بجوار السرير، بينما لايزال مرتديا ملابس العمل، المزدانة بنشارة الخشب والغراء، بينما أصابع يديه الغليظتين، طليت (بالجملكة).

ألقيت نظرة خاطفة على محتويات الحجرة، لمحت ضلفة الصوان الخاص به مفتوحة، بينما المفتاح معلق بالكالون، تعجبت، لماذا نسى إغلاقها اليوم؟ هذا لم يحدث من قبل، تذكرت تحذيرات أمى لنا دائما:

– لاتقتربوا من دولاب أبيكم، فيه أشياؤه الهامة، ولا يرغب أن يطلع عليها أحد.

* * *

دفعنى فضولى للاقتراب بهدوء، وببطء، سحبت الضلفة للخارج، لأتبين بوضوح ما بها من أشياء خفية، حدث ضجيج، كاد أبى ينهض على أثره، فقد تحرك أكثر من مرة ثم رفع يده

اليمنى، وألقى بها لترقد بجواره، يبدو أن القدر كان رحيما بى، تركنى أواصل رحلة البحث عن الحقيقة..

لم أصدق عينى، لحظة أن لمحت ما يشبه براز الفئران، ملفوفا بورق السلوفان، وكل قطعة على حدة، رصت بجوارها بعض الحقن المتلئة بسائل أبيض.سحبت إحداها بحذر شديد، وقرأت.. حقن منومة، فى لمح البرق أعدتها وأغلقت الضلفة بهدوء، ثم خرجت للصالة بينما جسدى يرتعد من شدة الخوف، جلست على دكة جدى القريبة من شباك الصالة، وقد انتابنى شعور بالوحشة وعدم الأمان.

تراءت أمامى أشباح الذين ماتوا حرقا فى المصبغة، تذكرت التحويطة التى أعدها جدى، وقد ظل ساهرا لبضعة ليالى فى إعدادها، يسجل فيها بالزعفران آيات قرآنية، وكلاما آخر، بعضه يأخذ شكل الأحجبة، ولا أعرف له تفسيرا، إلى أن بلغ طولها مايقرب من خمسة أمتار، هذه الوثيقة الغالية، تكمن هنا تحت البلاط المجاور للشباك، حاولت طرد الخوف وشعرت ببعض الأمان، لكن عقلى ظل مشغولا، بالأشياء التى حفظها أبى، فى صوانه وخاصة تلك القطع البنية اللون، عصرت ذهنى لأتذكر، حكاية روتها خالتى منذ كنت طفلة ولم تكن أمى قد أنجبت بعد أخوىَّ..

أصيب أبى بحالة نفسية، لازمته طويلا، إثر عودته من حرب ٤٨ وأهوال الأسلحة الفاسدة، حيث استشهد بعض زملائه أمام عينيه، ويقال إنه أجبر على التجنيد، ثم ظل يعمل بعد ذلك، لفترة فى معسكر الإنجليز مع أخيه الذى يصغره بقليل، وقبل أن يندمج مع عائلة أمى ويطلبها للزواج، كان دائما يعود فى المساء مغشيا عليه،

يحمله بعض رجال الزقاق ويلتف حوله الجيران وبعض المارة، يحضر أحدهم بصلة ليشمها على الفور، بينما يقول جار آخر:

— فى مثل هذه الحالات لايصلح سوى الجبن القديم، يبلع له قطعة، مرة واحدة، ويأخذ بعدها حماما باردا تحت الدش، يعود بعد قليل لوعيه، فقد تعاطى كمية كبيرة من الحشيش.

— ويسأل ابن أحد الجيران والده:

— ماذا يعنى الحشيش يا أبي؟

— مثل سم الفئران، أقصد براز الفئران.

* * *

أزف الوقت، وبات الامتحان على الأبواب، خشيت أن تؤثر حالتى النفسية على آدائى، دفعنى طموحى وكلمات جدى النورانية، ورغبتى الأكيدة فى الإلتحاق بالجامعة، وحال أمى وأخواى، وتحقيق الأمل المنشود، مرت الأيام العصيبة، وحمدت الله، فقد أجبت على كل المواد باقتدار، وفى اليوم الأخير، بينما أتجول فى فناء المدرسة، حيث كانت لجنتى، بكيت لحظة أن ألقيت نظرة وداع أخيرة، وانتابتنى رغبة ملحة، فى أن أقبل كل ما حولى من أشياء عزيزة علىَّ، وكان لى معها ذكريات، حفرت أثرا فى نفسى، الإذاعة المدرسية، كم وقفت أمامها، لألقى تحية الصباح، مجلات الحائط، حيث زينت ببصماتى، من مقالات ومعلومات وأخبار ونكات ساخرة وغيرها، مسرح المدرسة، كم بذلت الكثير فى إحيائه، المكتبة العامرة بالكتب المتنوعة فى كافة المجالات، كثيرا ماتصفحت محتوياتها وقرأت

بعضها، واستمد من ذخائرها، مادة لموضوعات الإنشاء، وكلمات الصباح التى تفوقت في إلقائها، كل شيء هنا حى، كانت لى معه ذكريات، حجرة الموسيقى، البيانو الذى تعلمت العزف عليه، فى حصة الهوايات، قاعة الفنون التشكيلية، كم أثنت مدرسة الرسم على إبداعاتى فى هذا المجال، كلما أمسكت بقطعة من الطمى الأسوانى أو الصلصال وشكلتها، تنظر لى بدهشة

وتقول بإعجاب:

— كم يعجبنى ما تقومين بتكوينه، تنتمى تلك القطع للفن التجريدى.

ولا أعرف ماذا تعنى، تلك التماثيل ما زالت قائمة، تخلد صانعيها، أنظر للنمرة النهائية فى كراسة الرسم، وأتذكر أسئلة المدرسة:

— ما الذى أوحى لك بهذا الشكل؟

— أعود للأمس القريب.

فى الأجازة الصيفية، تصحبنا أمى إلى القرية، أنا وأخواى، نلعب مع أبناء خالتى، أبقى ساعات بصحبة رمزى على شاطيء الترعة، يأخذ حفنة من طمى جاف من الغائط، ثم يعجنها بالماء، ويناولها لى قائلا:

— تأملينى جيدا، واصنعى تمثالا يشبهنى، يعد لنفسه قطعة أخرى، ويقوم بتشكيلها وهو يتأملنى بشوق، كأنما يود لو ينفذ لأعماقى، يحمل التمثالين ونعود معا إلى الدار، يعرضهما

لأشعة الشمس لفترة ويقول:

— صنعنا عريس وعروسة.

— ياترى يا عزيزى، هل ما زلت تحتفظ بهذه التماثيل؟

تخرجنى مدرسة الرسم من غفوتي:

— فى أى شيء تفكرين؟

— فى صنع شيء غير مألوف.

تربت على كتفى بحنان وهى تشير إلى تمثال قمت بصنعه :

— أحييك يا ماجدة، فى أعماقك يكمن الفن الأصيل.

يتراءى لى المعمل، رمز القهر، تلك الواقعة التى جعلتنى أغيب عن الوعى قليلا، وتسببت فى تغيير مسار حياتى الدراسية، لحظة أن أحضروا لى حوضا من الزجاج، امتلأ حتى آخره بالمياه الملونة بالدم، حيث وضعت كلية خروف، لاجتياز الامتحان العملى فى مادة الطبيعة، وقبل أن أمسك بالقلم، لأرسم ما فى الحوض، شعرت بدوار وسحابة من الضباب تلفنى، وسرعان ما انكفأت على المنضدة الكائن فوقها الحوض. وبينما أتجه لباب الخروج، إذا بى وجها لوجه بالأستاذ أمين، ناولنى قطعة من الشكولاته، اعتاد أن يمنحها لى، عقب كل موضوع إنشاء أكتبه، ثم سألني:

— لماذا تبكين ياابنتي؟

أجبت وأنا أجفف دموعي:

— إنها النهاية يا أستاذ، كم تمنيت البقاء هنا، لأطول وقت ممكن،

كل شيء عزيز على وثمين، ربت على كتفى بحنان ثم واصل:

– لا يا ماجدة، هكذا الحياة ياابنتى، لابد أن يتطور الإنسان للأفضل، ويكبر، وقد آن الأوان لتشقى طريقك للعلا، أنت مناضلة وذكية، والمشوار أمامك طويل، ولا تنسى أن المجد فى انتظارك.

جفت فى الحال دموعى، وزالت شبورة الضباب من أمامى، وكأنما أشرقت شمس الأمل، الذى انتظرته طويلا وقلت بابتسامة:

– صحيح يا أستاذ؟

– نعم يا أجمل وأذكى تلميذة عندى، سوف أسمع عنك أخبارا سارة، وأقرأ فى المستقبل القريب، نماذج من إبداعاتك، وليس ببعيد أن أراك أستاذة فى الجامعة، أو كاتبة مرموقة، أنت مجتهدة وطموحة، ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا، اذهبى يا ابنتى فى رعاية المولى عز وجل.

* * *

فى الصباح دق الباب بعنف، الطارق مالك البيت ومعه زوجة أخيه فاطمة، امرأة فى الثلاثين، سمراء ونحيفة، ارتسمت على وجهها ملامح القسوة، فى لحظة اقتحم الشقة دون استئذان محدثا ضوضاء بقبقابه الخشبى، وقد رفع ذيل جلبابه القديم بيده، كأحد الفلاحين المتجهين للحقل بغرض جمع القطن، ألقى بجسده البدين، فوق الدكة الخشبية .

قال بصوت مرتفع موجها كلامه لأمي:

– يا أم شريف، البيت لازم يترمم، الجدار الشرقى اتشقق، ولابد

مـن تغيير:

- بلاط الشقة.

لاحقته فاطمة:

- المصيبـة أن الحـرب علـى الأبـواب، ويمكـن فـى غـارة ولا غارتـين، يقـع البيـت علـى سـكانه، ونـروح فـى خـبر كان.

فـى لمـح الـبرق، سـحبت جريـدة الأخبـار مـن فـوق كتبـى المتكدسـة علـى المنضـدة، وهالنـى مـا قـرأت:

- مناوشـات عسـكرية فـى الـبر والبحـر، صـوت إطـلاق النـار يـدوى فـى الجـو منـذ بـدأت الأزمـة، تحـركات واسـعة للأسـطول الأمريكـى السـادس، والأسـطول البريطانـى فـى البحـر المتوسـط، إمـدادات عسـكرية أمريكيـة لإسـرائيل مـن القاعـدة الأمريكيـة فـى ليبيـا، جونسـون يقـود حملـة مـن الضغـط العسـكرى والسياسـى والاقتصـادى والنفسـى ضـد مصـر.

ألقيـت الجريـدة جانبـا، وتسـرب القلـق إلى نفسـى، بينمـا أمـى تصيـح بغيـظ:

- الله يخـرب بيتـك يـا جونسـون، ويكفينـا شـرك يـا أمريـكا، أنـت وأعوانـك الخونـة، بريطانيـا واليهـود، ولاد الأبالسـة، ويحرسـك يـا مصـر ويحميـك، نظـرة يـا أم الأيتـام، بركاتـك يـاأم هاشـم، يـا صاحبـة الشـورى، قاضـى الشـريعة، يـا سـيدى يـا إمـام يـا شـافعى، احرسـوا مصـر واحموهـا مـن كل بلـوة تحـل بيهـا.

كانت صفية قد انتهت من إعداد الشاى للضيوف.

ناولت المالك كوبا ساخنا وهى تقول:

– شاى مضبوط بالهنا والشفا، طلباتك أوامر يا حاج على.

وضع الكوب جانبا وقال:

– الأمر يحتاج فلوس كتير من كل شقة.

خبطت أمى كفا بكف ثم قالت وهى تمصص شفتيه:

– حالنا عدم وربنا يعلم، لولا أم بدوى وفضلها علينا، ما كانوا الأولاد دخلوا المدرسة.

قالت فاطمة بغيظ:

– المقاول محتاج لمصاريف.

غادر المالك باب شقتنا وهو غاضب، وبصحبته فاطمة، وقبل أن يصعد لسكنه، وقف فى منتصف الطرقة المقابلة لشقتنا، وقال بصوت مرتفع:

– ما العمل يا سكان البيت الأفاضل؟

فى لحظات، تجمهر بعض الجيران، وقد ارتسم الغضب على الوجوه، تقدمت أكبرهم سنا، سيدة مريضة، قالت بانفعال شديد:

– ندفع بالتقسيط.

أضافت أخرى بضيق:

– زود الإيجار الشهرى لكل شقة، بجزء من المبلغ المطلوب مع

obeikan.com

استعمال الرأفة، صاح المالك بغيظ وسخرية:

– إذا كان الإيجار الشهرى لكل شقة تلاته جنيه، أضيف كام ومين اللى يتحمل مصاريف الترميم؟

لاحقته أمى وهى تناوله كوبا آخر من الشاي:

– البركة فيك يا حاج، السكان فقرا، وكل منهم عنده أولاد بالكوم.

لم يجد صاحب البيت إلا أن يحمل كل شقة خمسين قرشا، تضاف على الإيجار الشهرى.

* * *

قبل ظهر اليوم، كان المقاول فى شقتنا بالدور الأول، وبصحبته بعض الصبية، ، الشرخ خطير فى الجزء السفلى من العقار، لم تحضر أمى بعد، من سوق المغربلين، تفضل دائما أن تذهب بنفسها، تتحمل مشاق الطريق، سيرا على الأقدام، مسافة لاتقل عن ثلاث مئة متر، لتحصل على خضار بسعر أقل، فضلا عن طزاجته، وقد أوصتنى برعاية أخوى ونصحتنى بألا أغادر الشقة إلى أن تعود.

بدأ أحد الصبية بخلع البلاط المجاور لشباك الصالة، وبجواره فاطمة، زوجة ابن صاحب البيت، بدت الشراسة على ملامح وجهها، وفى محاولة منه لنزع إحدى البلاطات، عثر على شيء ما، أسرع بإخراجه، عقب مجهود مضنٍ من الحفر، تأملت ما معه، بكرة ورق كبيرة ملفوفة بعناية، علت الدهشة وجهه، حاول إخفاءها فى طيات ملابسه وهو يصيح:

– عثرنا على كنز.

فى لمح البرق خطفتها فاطمة، فردت جزءا منها ثم صرخت:

— عمل مدفون تحت البلاط، الحمد لله لقيناه فى الوقت المناسب الورق جديد، ولم يصبه التلف .

اقتربت منها وجسدى يرتعد من الخوف، تأملت شكل الكتابة، آيات من القرآن، والسبع آيات المنجيات، وبعض الرسومات التى يصنع جدى منها الأحجبة.

سألتها بتوسل أن تدعنى أقرأ، جزءا منها، وافقت رغبة منها فى المعرفة..

إن خفت فاقرأ سورة الجن والجنون، بحق الله وبجلال جلال الله وبنور وجه الله وما جرى به القلم من عند الله، إلى خير خلق الله، محمد بن عبد الله. أجيبوا، أنزلوا يا ملائكة العرش، قد جاءكم جبريل عليه السلام، بسخط من الله وإسرافيل بصعقة من عند الله، واكشف الغمام للناظرين إليكم ولا تهرعوا بالناظرين إليكم وأخبرونا على ما نشاء لكم، أنزلوا عجلوا بحق كهعص. أنه من سليمان بارك الله بيكم ولكم.

اغرورقت عيناى بالدموع، منذ قراءتى للسطر الأول، وصرخت فى وجه السيدة:

— أرجوك أعطنى التحويطة أو اتركيها حتى تعود أمى، سهر جدى الليالى من أجلها، بذل جهدا كثيرا فى إعدادها، لطرد العفاريت من الشقة.

لم تكترث لبكائى وتوسلاتى، بينما أخواى وقفا بجوارى يبكيان وهما يرددان:

– العفاريت ياخالتى، حرام عليك، إحنا خايفين.

فى لحظة اتجهت إلى دورة المياه، وهى ممسكة باللفافة بيديها بإحكام، وفى لمح البرق ملأت طشت الغسيل بالمياه لآخره، وأغرقتها، وظلت تعبث بها إلى أن ذاب ما بها من كلام، وتحولت لفتات من الورق.

ارتفع صراخى وبكى أخواى ورحنا نردد:

– تعبك ضاع ياجدى وسهرك الليالى، ستخرج لنا العفاريت من المصبغة، من الذى سيحمينا من شرها؟

عادت أمى مؤخرا، اندهشت لحظة أن وجدتنا نبكى، وقد انشغلت فاطمة مع صبى المقاول، سألتنى عما حدث، صحت بأعلى صوتي:

– خالتى فاطمة، رمت تحويطة جدى فى المية، والعفاريت هترجع وتموتنا.

فى الحال، نشبت مشاجرة عنيفة بين أمى وبين فاطمة، كادت تصل للضرب وتمزيق الشعور، لولا تدخل صبى المقاول وبعض الجيران، تجمعوا على الفور، وفى النهاية اعتذرت جارتنا الشريرة وبررت فعلتها باعتقادها بأن ما عثرت عليه، ما هو إلا سحر أو عمل مكيدة دبرتها زوجة صاحب البيت الثانية، فهى تقيم فى حى الإمام الشافعى، ولها علاقات مع بعض المشايخ والمشعوذين،

تحقد على ضرتها، وأبناء الحاج منها، لأنها لم تنجب، وتتمنى لو ينهار البيت، وقد عرفت أنه مسجل باسم ولاد الحاج.

انفض المولد، ألقت أمي بجسدها المتعب على الأريكة ثم قالت بحزن:

— يفيد بإيه الاعتذار، راح الأمان، لله الملك من قبل ومن بعد.

* * *

في صباح اليوم، لم تطل الشمس على شقتنا، حجبت الغيوم الرؤية، ولم يعد لتلال الدراسة أثر، واختفت تماما الشجيرات العارية، والمتناثرة هنا وهناك، بدت كأشباح مخيفة. شعرت بالاختناق، كدت أصرخ، كأنما بداخلي بركان يغلي، وحانت لحظة الانفجار، ألقيت نظرة خاطفة على محتويات الصالة لحظة أن وقعت عيني على الدكة الخشبية، تذكرت جدى الغائب، هنا مرقده، مرتبة مصنوعة من القش، غير مستوية، وبينما أنفض ما عليها من غبار، وأعيد ترتيبها، إذا بي ألمح كتابا ذا أوراق صفراء قديمة، في لمح البرق فتحت صفحاته، شدتني بعض العناوين..

* * *

باب حصن عظيم.. توقفت لحظة أن شعرت بزلزال هز أركان بيتنا المتهالك، حيث أطلقت صفارة الإنذار، صاح بعض السكان:

— غارة يلا يا ولاد..نختبيء تحت بئر السلم.

هرولت أمي بصحبة بعض الجيران، تاركة طعام الإفطار، نادت عليَّ وهي تحتضن شريف وصفية، أسرعت بالاختباء تحت

دكـة جـدى، واعتقـدت أننـى سـبقتهم، قالـت بخـوف..

– الحـرب قامـت، يـا لطيـف الطـف بنـا، ونجنـا ممـا نخـاف وانصرنـا علـى أعدائنـا الظالمـين.

تذكـرت كلمـات جـدى فـى الأزمـات، لابـد أن نحتمـى بآيـات مـن الذكـر الحكيـم، الكتـاب مـا زال فـى يـدى، رحـت أواصـل القـراءة، وجسـدى يرتعـد مـن الخـوف..

– صفـة سـفوف الأصـول، طـرق فـى عمـل الحبر السـرى، بـاب جلب ميمـون، بـاب محبـة، قسـم إبليـس، بـاب ربـاط الدعـوة المباركـة، ثـم بـاب الحصـن الحصـين، ركـزت بصـرى علـى صفحاتـه..

– يقرأ قبل كل عمل، لمنع الإنسان من شر المخلوقات..

بسـم الله الرحمن الرحيم، بسـم الله سـاهو، بسـم الله ياهو، بسم الله مجـرى البحـر هـو الله، يـا مـن ألجمـت كل متمـرد، سـلم سـلم يـا الله.

دقائق وهدأت العاصفة، عاد كل إلى حال سبيله.

اندهشـت أمـى لحظـة أن عرفـت، أننـى لم أغـادر عتبـة البـاب، كادت أن تنقـض علـىَّ وتضربنـى بعنـف وهـى تقـول..

– هاعمل إيه لو بقيت تحت التراب؟

قلت لها وانا أرتعد من الخوف:

– لن يصيبنا إلا ما كتبه الله علينا، هكذا علمنى جدي

ألقت بجسدها السمين على الدكة وهى تقول بهدوء:

– ونعم بالله، فين أراضيك يا عمى، إحنا من غيرك غلابة.

رحت أواصل القراءة وقد انشغلت أمى بإعداد الإفطار.

تكون قراءة هذا الحصن، وسط ثلاثة دوائر، وجميع طلباتك معك، ولا تخرج من هذه الدوائرإلا إذا صرفت الخدام، وإلا يسببوا لك الأذى.

ارتعدت مفاصلى، أسرعت بإعادة الكتاب لمكانه، وشردت لحظات،

- أين أنت الآن ياجدى، تركت فراغا، فقدنا الأمان، ليتنى أعرف مكانك؟

نادت علىَّ أمى لتناول الطعام، اعتذرت لفقدان الشهية.

ساد صمت، انتفضت على أثر دقات عنيفة بالباب، اضطربت معها نفسى، الطارق ابنة الجيران، قالت بلهجة سريعة..

- بالحوش تمرجى من القصر العينى.

سألتنى أمى بينما شريف وصفية يعدوان خلفى:

- إيه الحكاية يا ماجدة؟

- عثروا على جدى.

سلمنى الرسول ورقة، قرأت فى الحال محتواها..تسلل الأسى إلى نفسى، وسقطت دموعى بغزارة.

سألنى شريف بقلق..

- ماذا حدث لجدي؟

ألقيت بجسى المنهك، على إحدى درجات السلم، وبصوت مشروخ:

obeikan.com

– أصيب فى حادث أتوبيس.

سألت صفية بخوف؟

– هل الإصابة خطيرة؟

– كسر فى الحوض والساق.

تركت أمى الطعام على الفور، ونهضت مذعورة والدموع فى عينيها:

– مسكين يا عمى، طول عمرك شقيان، وتجرى ورا لقمة العيش، تقدم الخير للغلابة، آه لو علم أحبابك من دراويش أم اليتامى، لقطعوا الطريق حفاة، لمواساتك والاطمئنان عليك.

لاحقتها بحزن..

– كلها أيام قليلة وتهل تباشير المولد، ويأتون بالعشرات، قادمين من الأحياء البعيدة والقريبة، من القرى والنجوع، يلتفون حوله، يطعم الجائع، يشفى المرضى بقراءة القرآن.

قالت أمى بخوف..

– أخشى أن يجيء المولد ولا نراه.

أجبتها فى قلق

– لحظتها لن تقوم له قائمة، وسيموت إحساسنا بالبهجة.

* * *

شعرت بصداع رهيب، كادت رأسى تنفجر، نهضت لأعد فنجان شاى، لم أجد سوى عبوات فارغة ولا أثر لشاى أو سكر سألت أمى، ربما أخفت بعضه خرجت صفية منذ ساعتين لشراء التموين، أخشى أن يكون أصابها مكروه، إبحثى عنها، فى الشهر الماضى، كنت بصحبتها، وللأسف سرق كيس نقودى، أعرف الحرامى، سيدة من سكان الزقاق، لم أحاسبها، أولادها أيتام، ربنا يسامحها.

لاحقتها بغيظ:

- جسمها سليم، ممكن تشتغل ولو عاملة فى دار حضانة، أولدى بعض الميسورين.
- أولادها صغار يا بنتى، وفى حاجة لرعايتها، لمن تتركهم، وهى بعيدة عن أهلها وأقارب زوجها المتوفى.، مسكين، لم يترك لها من حطام الدنيا ما يطعم أولادها العيش الحاف، تاخد إيه من بائع متجول، يسرح بطبق ترمس ولاشوية بطاطا سخنة.

مر طيف جدى، يأتى لنا فى كل مرة ببعض الطعام، وباكو شاى وكيس سكر، كم يحزننى غيابك، ليتنى أراك ولو لدقائق، ليعود الأمان، ويزول الصداع.

مضى بعض الوقت، عادت صفية، تجرثوب الفشل، تبدل شكلها، ارتسم الحزن على وجهها، وتناثر شعرها بشكل فوضوى على كتفيها.

سألتها أمى بلهفة:

– قلقتينا يا بنتى عليك، فين التموين؟

التقطت أنفاسها بصعوبة، وأحابت بصوت متحشرج:

– التموين يباع فى السوق السوده، والناس مضطرة تشترى، اقتحم البعض دكان، عم عيسوى، وهموا بضربه، عندما رفض منحهم حصصهم، بالسعر المعتاد، أسرع بإغلاق المحل وفر هاربا..

– الحرب يا ناس ماذا نفعل؟، قالها البعض بصوت مرتفع.

أفاد البعض بأنها إشاعة، بينما أكد الآخرون من النسوة، أنها الحرب بالفعل تدق على الأبواب، فقد جاءت استدعاءات لأزواجهم للتدريب فى الجيش، لم تجد أمى سوى جارتنا، أم محمد، تربطها بها علاقات حميمة، تواسى كل منهما الأخرى وقت الأزمات، تذهبا معا إلى سوق الخضار، وهى أقرب جارة لنا، حيث تقطن فى الشقة المقابلة لشقتنا، لم تجد حرج فى أن تستلف منها لحين ميسرة، فهى سيدة بيت مدبرة وواعية رغم فقرها، تعمل لحساب بكره ألف حساب، ومن عادتهما التحدث معا لوقت طويل وعلى باسطة السلم، وبصوت عال عن مشاكل البيت والأولاد وغيرها، تسرب الخبر كالبرق، أسرع الجيران بالإنتشار، لشراء ما يجدونه من مواد تموينية، ويخزنوها للأيام السوداء.

ينتشر الصداع فى رأسى ويشتد، يزداد اليأس، يمر كالثعبان أمام عينى يتضخم، يتمدد، يتوغل فى أجسادنا، لم يعد يبث سمومه فى جسمى وحده، بل يسعى ليؤرق أجسادنا جميعا، أجساد الفقراء الضعفاء، ويصيبها بالهزال بل والدمار.

إلى متى سيظل يكتم أنفاسنا، نرغب فى الخروج ولا نقدر، أفعى تتلون كثيرا، ولا تثبت على لون محدد، تتغير بتغير البيئة، حيث تعيش، تبدو أحيانا سوداء، وأخرى صفراء، وثالثا حمراء، أوهى مزيج من كل الألوان طبقا لحال البيئة التى تعيش فيها،

هل يمكننا القضاء عليها، كيف ولا نملك قوت يومنا.

تؤلنى الذكريات، تأسرنى فى زنزانة الصمت، ترن فى أذنى كلمات جدى، أسمع صوته ينادينى، يوقظنى كلما تسلل الملل إلى نفسى، وأرقتنى الوحشة وكاد اليأس يقتلنى..

— تعالى يا صاحبة القلم الرفيع، ولا تنسى الحبر الأحمر، الزعفران، واكتبى ما أمليه عليك من آيات من الذكر الحكيم، لتشعرى بالأمان، وتقهرى اليأس.

أدعو له بالشفاء العاجل والعودة لنا سالما.

دق الباب أكثر من مرة، أفقت، خفق قلبى، نهضت على الفور، الطارق زميلة بالمدرسة الثانوية، تقيم بصحبة أسرتها فى بيت كائن فى حينا، تدرس بالقسم العلمى،

يدها ممسكة بجريدة مطوية، ناولتنى إياها بينما تقبلنى فى وجهى، قالت وابتسامة حزينة تعلو شفتيها:

— مبروك يا ماجدة، نجحت بتفوق.

نسيت الحزن قليلا، فى الحال شعرت كأنما أريد أن أطير كحمامة، ترفرف بجناحيها فى الفضاء، تود لو تحتضن الهواء، فى لمح البرق احتضنتها، وطبعت قبلة على جبهتها، وسألتها

عن نتيجة القسم العلمى، شردت قليلا ثم همت بالنهوض وهى تقول فى أسى:

— لم يحالفنى الحظ هذا العام.

ربت على كتفها مواسية

— ربنا يعوض عليك.

ساد صمت ثم قالت:

توقعت أنك ستهللين وترقصين من الفرحة.

— لاأشعر بطعم النجاح، مصر كلها حزينة، تعيش فى ظلام، كل شىء كساه اللون الأزرق، الناس فى الشوارع تائهين، لايعرفون أين سينتهى بهم المطاف، تؤرقنا مرارة الهزيمة، تفقدنا شهيتنا، تقف فى حلوقنا كالعلقم، وكأنما أصيبنا بحالة من فقدان الوعىً.

قالت فى حزن:

— لاتنسى يا ماجدة أن جموع المصريين نهضوا رغم الهزيمة، وقفوا رجالا ولم يسمحوا لعبد الناصر بالتنحى، وأنت وأنا رغم القيود التى تحاصرنى من قبل شقيقى الملتحى، وكل الناس فى الميادين والشوارع والحارات حتى الأزقة، خرجنا نطالب ببقاء عبد الناصر، وانطلقنا لنذوب وسط الجماهير التى ملأت الشوارع، تهتف ببقاء عبد الناصر، أبونا الروحى، وكأن الدرب الأحمر، قلب العاصمة الشعبى، النابض بالحياة شعلة متقدة، ترفض الانطفاء، انتشرنا فى كل الميادين، المغربلين، السروجية، والخيامية، والفحامين، وباب الوزير، وسوق

السلاح، والباطنية وتحت الربع، حشود هائلة من البشر يرفضون الهزيمة ويعلنون النهوض لمواجهتها، ووفداء الروح لتجاوزها.

* * *

لم تفرح أمى لنجاحى وتزغرد كعادة كل أم، فقط طبعت قبلة باردة على جبهتى

وقالت بصوت هامس:

– المثل يقول يا ابنتى، دارى على شمعتك تولع، أوعى تقولى لحد م الجيران، عيونهم مدورة وصفرا، تدخل الجسم زى السهم الدامى.

شعرت بالحزن، لو كان جدى معنا الآن، لملأ الدنيا بالبهجة والسرور.

اقتربا أخواى، سألانى عن الحلوى، ردت أمى بصوت منخفض بينما تحاول إسكاتهما..أعرف يا ماجدة أنك طموحة، ظروفنا صعبة ياابنتى، لابد من البحث عن وظيفة، تساعد فى تربية أخوتك، حالنا عدم، ولا مخرج لنا من الفقر إلا بمساعدتك، وممكن تواصلى الدراسة فى الجامعة زى ولاد خالاتك وأعمامك.ساد صمت، ذهب فكرى إلى هناك حيث يقيم رمزى وأسرته فى كفر الغلابة. آه لو علم خبر نجاحى لجاءنى على الفور، ليشعرنى بالفرحة، ربما يقدم لى هدية، ما أخشاه إلحاحه فى طلب الزواج، لم يعد هناك مبرر للتأجيل، أخشى أيضا أن يكون أصابه مكروه، من جراء الحرب، لاشك أنه يشعر بمرارة الهزيمة مثلى.

ساد صمت، ذهب فكرى إلى هناك حيث يقيم رمزى وأسرته فى كفر الغلابة.

آه لو يعلم خبر نجاحى لجاءنى على الفور، لشعرنى بالفرحة، ربما يقدم لى هدية، ما أخشاه إلحاحه لى فى طلب الزواج، لم يعد هناك مبرر للتأجيل، أخشى أيضا أن يكون أصابه مكروه، من جراء الحرب، لاشك أنه يشعر بمرارة الهزيمة مثلى.

* * *

بقيت ساهره، أفكر فى مصيرى، عاد أبى قرب منتصف الليل، تسرب إلى أذنى حديث هامس بينه وبين أمى، قالت بارتياح:

— آن الأوان يا ابو شريف وحصلت ماجدة على الثانوية.

تنهد بصعوبة ولاحقها..

— وهل آن الأوان لأرتاح، التعب هدنى، والسهر فى الورشة، إياك تنسى أحوال البلد السيئة.

واصلت أمى بصوت ضعيف وحزين:

— ماجدة ذكية وطموحة، نفسها تدخل الجامعة، يمكن ربنا يكرمها، وتصبح مديرة ولا محامية كبيرة.

انفعل بالغضب وقال فى ضيق:

— بلاش كلام فارغ، لاجامعة ولا يحزنون، كفاية الشهادة اللى معاها القرش هو كل شىء فى أيامنا السودة دى.

صمتت أمى فى الحال، وسكتت معها كل الأشياء، لحظات، وارتفعت أصوات الحقيقة المرة تهز جدران بيتنا المتصدع، كان لصداها قوة، تفوق ما حدث يوم أن جاءنا المقاول لخلع بلاط

الشقة وتكسير الجدران، أصوات رهيبة كادت تصيبنى بالصمم، وفقدان الوعى مثلما جاءت الغارات بالزلازل لتهز كياننا.

قالت أمى بصوت خافت:

- ماجدة زى بنتك، ومن واجبك تساعدها.

فى الحال انطلقت صرخة فى وجه أمى..

- أنت عارفه انها مش بنتى، فاكره فى أول حياتنا، لما طلبت منك تتخلصى من العيل اللى فى بطنك.

دارت الدنيا بى، وابتلع السحاب ما بقى من وجه القمر، كدت أهوي فى بئر سحيق، تسللت برودة لأطرافى، أصابتنى برعشة شديدة، كأننى محمومة.

قالت أمى فى ضعف:

- أبوها كان رجل طيب، وموظف بسيط، عمرى ما حسيت وانا معاه إنى محتاجه لأى شيء، ولا جرح كرامتى بكلمة، يا عينى عليه، خطفه الموت فى حادث أليم، قبل ما يعلن جوازنا.

- ارحمينى وسيبينى انام، طول النهار وانا شقيان، كفاية مسئولية العيلين المتعلقة فى رقبتى، سنوات طويلة وانا متحمل تخريف ابوه، ودجله، وضحكه على الناس بالأحجبة اللى بيعملها، عم الدرويش، قال شيخ قال.

واصلت أمى فى حزن:

- مسكين الشيخ الصاوى، الظاهر انه هيحصل ابنه، ما فكرتش

ولا مرة تزوره فى القصر العينى، وما تنساش إنه بيعاملك زى حد من اولاده.

— ليه هو كان من بقية عيلتى.

ارتفع صوت أمى قليلا فى الظلام:

يكفى انك تعيش فى شقبة ابنه، ولم يشعر هو بالراحة فيها، ينام يا عينى على دكة خشبية قديمة فى الصالة، وعمره ما كلفك مليم فى معيشته.

— جلب لنا العار، طول النهار ولغاية آخر الليل، يلف فى حى الحسين، وحوالين مقام ام الأيام مع الدراويش والمجازيب، ويرجع قبل الفجر

— بحفنة ملاليم، وكام تعريفة.

لاحقته أمى والأسى يعصر قلبها:

— يدور فى رحاب الله، مع أولياء الله الصالحين، ساب وظيفته فى الشرطة العسكرية، واتفرغ لعمل الخير، والعبادة ليل ونهار.

مسحت دمعتين حائرتين من عينى، والأسى ريح تكسر عظامى، ليتك لم تمت يا أبى، لكنها إرادة المولى عز وجل.

* * *

أصبح البيت قبرا يخنقنى، قررت مغادرته، إلى أين أذهب، ليس لى فى الدنيا سوى أمى وأخوى، ارتبطت بهم وأحببتهم كثيرا، وصارت علاقة حميمة تربطنى أكثر بالمكان، أشم فيه

رائحة أبى وجدى الطيب، كان يمرحان فى أرجائه، يضفى عليه جدى من لمساته المباركة جوا من الروحانيات.

انتظرت بفارغ الصبر عودة جدى من قصر العينى، مضت أيام قليلة، عاد محمولا على الأعناق، لزم فراشه البسيط، والغير مريح، مما أصابنى بالفزع، أن جدى لم يعد يقوى على الحركة، فالكسر فى ساقه، الحوض يسبب له ألماشديدا، لايقوى على احتماله، والمسمار الذى تم تركيبه له من النوع العادى، حاول أن يمشى بضعة خطوات وببطء، فى أركان الصالة الواسعة، مسنودا على عجازين من الخشب، أهداهما له أحد النجارين بحارتنا، وقد يأس من وعود زوج أمى فى أن يصنع له عجازا مريحا، ومما عمق الألم فى نفسى أكثر، أن مولد السيدة فاطمة النبوية على الأبواب، وعليه أن يعد نفسه للقاء الدراويش، حيث ينتظره العشرات من المريدين القادمين من جهات متفرقة من صعيد مصر، يهديهم نفحاته الطيبة، يعقد الجلسات الروحانية التى تبعث فيهم الصبر على البلاء، يملى عليهم دعواته فى أن يحفظ الله مصرنا الحبيبة من كل سوء، وينصرها على كل من يعاديها، وهم يرددون وراءه، آمين، يارب العالمين.

كيف يتسنى له ذلك وقد فقد القدرة على السير، بصعوبة يمشى خطوتين ثم يهوى، ساد صمت، فتحت شباك الصالة الكبير ليدخل بعض الهواء رغم رائحة الصبغة التى تسبب لنا الإختناق، وتتسرب إلينا طوال النهار، لمحت بومة، راحت تقف على حافة شجرة جرداء تتوسط ساحة المصبغة، يطحون على فروعها فى معظم الأحيان الملابس السوداء وغيرها بعد صبغها مما يشعر

الرائـى أنـه أمـام شـبح أو عفريـت، راحـت تصـدر أصواتـا مخيفـة، بعثـت فـى نفسـى الكآبـة بينمـا الليـل علـى وشـك الدخـول، انقبـض قلبـى، وكأنمـا روح عزرائيـل تجسـدت فـى هـذا المخلـوق المخيـف.

تذكرت كلام أمى..

— صـوت البـوم شـؤم، وجودهـا فى أى مـكان يجلب الخـراب والموت.

أسـرعت بإغـلاق الشـباك، لاحظـت أن جـدى يشـعر بالإختنـاق مثلـى، وجسـده الضعيـف لم يعـد يحتمـل مـرارة الألم، أحضـرت إحـدى كراسـاتى القديمـة، رحـت أحركهـا أمـام وجهـه لأجـدد لـه الهـواء، ناولتـه جرعـة مـاء وكسـرة خبـز مـع بضـع عيـدان الجرجـير، وحفنـة مـن الدقـة وقطعـة جـبن قريـش فـى حجـم علبـة الكبريـت، وهـذا كل مايتناولـه فـى غذائـه طـوال اليـوم،

مـا الـذى أصابـك يـا جـدى، هـل دهسـتك عربـة يقودهـا سـائق مخمـور أم سـقطت مـن شـدة الضعـف والهـزال، ليرحمـك الله ويمـن عليـك بالشـفاء.

* * *

فـى الصبـاح تلقيـت رسـالة ناولهـا لى أخـى شـريف، تتضمـن اسـتدعاء مـن اللجنـة الثقافيـة بالإتحـاد الإشـتراكى بالـدرب الأحمـر، تعجبـت، لمـاذا تم اسـتدعائى رسميـا هـذه المـرة، فالنـدوة الثقافيـة التـى أشـرف عليهـا، تعقـد أسـبوعيا، وأشـارك بصفـة دوريـة، يبـدو أن فـى الأمـر شـيئا، فبلادنـا تمـر بظـروف حرجـة!

تأملت مضمون الرسالة:

– تستضيف الندوة اليوم شاعر العامية الكبير، محمد العزب، يحدثنا عن دور المثقفين فى تعبئة الجماهير.ونرجو عدم التخلف.

عصرت ذهنى لأتذكر هذا الشاعر..

بالفعل هو من عشاق مصر، ويحب الزعيم عبد الناصر كثيرا، أتذكر لحظة أن أعلن الرئيس تنحيه عن قيادة أمور البلاد، أصيب هذا الشاعر بحالة من فقدان الوعى، وهدد بقتل نفسه، رأيته فى مقر الأمانة وقت سماع خطاب التنحى، وكان بعض المسئولين الكبار ومعظم الشباب يرتدون الزى العسكرى، لحظتها رفع محمد العزب خوزته العسكرية وكاد أن يضرب بها رأسه، فى الحال لحق به أحد المسئولين وحال بينه وبين ما ينوى فعله، كما طلب منه أن يقف رجلا بحق، فالمصريون جميعا لن يسمحوا لعبد الناصر بالتنحى، عاد لوعيه وانطلقنا جميعا لنلتحم بالجماهير التى ملأت الشوارع، وراحت تهتف ببقاء عبد الناصر.

كانت الندوة بداية لسلسلة من الندوات الثقافية السياسية، وقف الشاعر العزب ليلقى كلمته بكل شجاعة، أحسست لأول مرة، والكلام لمحمد حسنين هيكل.. إن الرجل الذى أمامى، يقصد عبد الناصر(جريح) ينزف دمه فى هدوء مأخوذ كأنه ما زال تحت نوع من الصدمة، قلت فى محاولة للتحقيق عنه.. إن المقادير تصيب الناس أحيانا بما لم يتحسبوا له، والمهم كيف يتصرف الناس، بعد أن تضربهم المقادير، قال الرئيس وهويهز رأسه فى أسى..

– ما يؤلمنى أن المقادير لم تكن هى التى ضربتنا، نحن ضربنا أنفسناعبد الحكيم عامرأصدر قراره بالإنسحاب من سيناء، بعد

أن عـرف حجـم الخسـائر، أحس بالإنكشـاف وظن أن عليه سـحب القـوات، وهـذا تصـرف غريـب، لم يخطرنـى عبـد الحكيـم بقـرار الإنسـحاب قبـل إصـداره، لأنه فى الغالب كان مكسـوفا من نفسـه..

لم يكـن الشـاعرمحمد وحـده الـذى يشـعر بمـرارة الأزمـة، ويحـاول بالوثائـق أن يـبريء عبـد الناصـر بـل جلسـنا جميعـا فـى حالـة ذهـول فـوق مقاعدنـا، نشـر بمـرارة الهزيمـة، لكـن مـاذا نفعـل؟

أخرجنا من شرودنا وقال..

— علينـا جميعـا أن نصمـد ونواجـه مصيرنـا بـروح عالية وصـبر، ونفكر بوعـى كيـف نواجـه عدونـا، وللعلـم معنـا فى ندوتنـا هذه أمـل فتاة فـى ريعـان الصبـا، جـاءت بصحبـة أسـرتها مـن الإسماعيليـة بعـد استشـهاد والدهـا، وحـى الـدرب الأحمربـل وكل بقعـة فـى أرض مصـر المحروسـة، تفتـح لهـا ذراعيهـا، لاسـتقبالها والترحيـب بـكل أخواتهـا، وكل إخواننـا القادمـين مـن أرض المعركـة.

وقفـت أمـل علـى المنصـة بدعـوة مـن المحاضـر للتحـدث عـن نفسـها، نحيفـة، ذات ملامـح حـادة، فـى رنـة صوتهـا حـزن عميـق :

— تعتبر النكسة بداية موسم هجرة أبناء القناة إلى الدلتا والقاهرة، الأمر الذى رسخ فى داخلى إحساسا عميقا بالمسئولية تجاه وطننا الغالي

وكان أول درس أتلقـاه، هـو ذلـك المشـهد الحزيـن لآثـار العـدوان، بدايـة بانهيـار بلكونـة شـقتنا، وانتهـاء بطابـور سـيارات النقـل التـى تحمـل أبنـاء المدينـة إلى عمـق الوطـن، لذلـك قررنـا الخـروج مـع جمـوع المهاجريـن، بقينـا فـى الاسماعيليـة مـع مجموعـة قليلـة مـن الأسـر، شـاهدت فـى هـذه الرحلـة دمـوع الكبـار التـى جرحت قلبى، وشـاهدت

العزيمة والإصرار فى عيون أبناء الوطن على الانتصار، فتأكدت أن مصر سوف تنتصر وأن النكسة شيء مؤقت وحتما سيزول.

بدأت حملة التبرعات للمجهود الحربى، اصطحبتنا أمنا إلى مبنى المحافظة، شرحت لنا معنى التبرع كمشاركة فعلية فى حرب الاستنزاف، ولم يكن أمامى أنا وإخوتى إلا خلع المصوغات الذهبية البسيطة التى نتزين بها، فالوطن أحق بها، وعدنا سعداء بما فعلنا.

* * *

تدهورت حالة جدى، ولم يمضى على بقائه معنا سوى أيام قليلة، شعرت بالفزع وتوجهت على الفور إلى قصر العينى فى محاولة لإعادته لاستكمال علاجه، ربما يشعر ببعض الراحة؛ فى إحدى عنابر المبنى فوجئت بما أصابنى بالدوار وكاد يغمى علىَّ، لولا أن سيدة ترافق طفلا عقب إجراء عملية جراحية له، شدتنى من يدى، أفسحت لى مكانا بجوارطفلها لألقى بجسدى المتعب على سرير تلوثت ملاءته ببقع من الدم، أفقت لأجد أمامى إحدى المرضات، ممسكة بقطعة قطن مغموسة فى النشادر، تمررها على أنفى، فتحت عينى لأجد عشرات الأطفال ذوى أعمار مختلفة، تتراوح ما بين سنة وإثنى عشرة، معظمهم فى حالة إغماء، يفترشون مساحة كبيرة من بلاط العنبر.

سألت سيدة ترتدى جلبابا أسود اللون، وتلف رأسها بطرحة سوداء أيضا عما أصاب هؤلاء الأطفال؟

أجابت بحزن:

– شربوا، بوتاس، شقاوة عيال وإهمال الأمهات، وهم فى حالة بنج، وقد قام الطبيب بعمليات توسيع للزور.

لاحقتنى أخرى، يبدو من مظهرها أنها من أهل المدينة:

– معظم الآباء تم استدعاؤهم للجيش، ماذا تفعل الأم لوحدها، وخصوصا إذا كانت تعول ثلاثة أوأربعة أبناء؟

لم أقو على الإحتمال، نهضت بصعوبة، حاولت أن أجد مكانا أمر منه من بين هؤلاء الراقدين بلا حراك، فوق أرض العنبر، وقد تكدست الآسرة بآخرين، شعرت بخفقان فى قلبى، وشيء يتمزق داخلى، سألت عن الطبيب النوبادجى، على بعد خطوات من حجرته تقف رئيسة المرضات، نظراتها حائرة، والخوف يمتلكها، اقتربت منها سألتها:

– لو سمحت، جدى أحمد الصاوى، حجز هنا منذ أيام قليلة، وأجريت له عملية أثر كسر فى الحوض والساق، لم يشفَ بعد وتزيد آلامه باستمرار، هل يمكن إعادته لاستكمال علاجه؟

نظرت لى بدهشة وعيونها شاردة، ثم أجابت بصوت منخفض:

– لايمكن الاستدلال على ملفه الآن، وفى إمكانك الحضور بعد أسبوع على الأقل.

حاولت إقناعها أكثر من مرة، خوفا من تدهور حالته أكثر وللأسف كان اليأس حليفى، ولم أجد سوى التوجه لباب الخروج.

وقبل أن أغادر المبنى، تسرب إلى أذنى حديث هامس بين إثنين من المرضى، يو أنهما من مصابى الحرب، يجلسان على طاولة خشبية:

- ألم يعثروا على المريض المجنون، يقال إنه أُصيب بلوثة عقلية عقب إصابته فى الحرب، خرج قبل أن يلتئم جرح العملية، يقال أيضا أن أكثر من رصاصة اخترقت رأسه، الحمد لله أن جراحنا خفيفة، ربنا ينتقم منهم، هؤلاء الأعداء.

- عاد بعد ما نزف الجرح وفتحه الأطباء مرة أخرى، وللأسف هرب ثانية ولا أحد يعرف السبب؟

- اتهمه البعض بسرقة كل ملفات المرضى قبل هروبه فى المرة الثانية وحاليا يبحث عنه البوليس.

عاودت السهر بجوار جدى بضعة ليالى، أحيطه برعايتى، وألبى له احتياجاته البسيطة إلى أن حانت لحظة النهاية، فى ليلة كئيبة وقد أدى صلاة العشاء راقدا، ثم راح يقاوم شدة الألم بتلاوة بعض آيات من الذكر الحكيم إلى منتصف الليل، ومما أثر فى نفسه وأحزنه كثيرا، ضياع التحويطة، فقد أخبرته أمى، واعتقدت أنه فى إمكانه أن يصنع غيرها، وبالفعل تمنى لو يقدر، لكن ما باليد حيلة، سألنى أن أجلس بجواره، قال هامسا بينما يضع يده النحيفة على كتفي:

- تجلدى بالصبر يا صاحبة القلم الرفيع، وإياك أن تضعفى المشوار أمامك ما زال طويلا، والطريق شاق، على كل حال، المجد فى انتظارك.

أينعت كلماته ورود القلب الذابلة، وبعثت فى نفسى الأمل، حيث كاد يتوارى إثر الأزمة الأخيرة، طبعت قبلة على جبهته الباردة، وما زالت فى عيني:

– ستظل بجانبى يا صاحب القلب الكبير، تمنحنى القوة وتبعث فى نفسى الأمل.

صمت قليلا ثم أغمض عينيه وقال فى صوت ضعيف:

– ناولينى جرعة ماء.

شربها مرة واحدة، نظر لى مليا ثم صمت طويلا، شعرت أن عمود بيتنا الأساسى على وشك الانهيار، وبالتالى سيحل الخراب، رحت فى غيبوبة، أفقت على صرخات أمى وبعض الجيران، ظلت ترن فى جدران البيت المتصدع، إلى أن ظهر أول خيط للنهار ومعه رحل جدى محمولا على الأعناق ليدفن فى مقابر الصدقة بالغفير.

***

عاودتنى الأزمة من جديد، ازدادت آلامى الجسدية بل والنفسية، خاصة وقد انطفأ شعاع الأمل، الذى كان يضيء لى الطريق وأصبح علىَّ أن أتسلح بالصبر وأكون شجاعة.

بقيت ليال لم يغمض لى جفن، واسودت الدنيا فى عينى، وكدت أهوى، فكرت فى مواجهة أمى ربما تقف بجانبى وتخفف عنى، وقد تحمينى،

تراجعت خوفا من أن أصدمها أو أجرح مشاعرها، فكم تألمت لأجلنا كثيرا، وقاست مرارة العيش، ولا أعتقد أنها ستحتمل مثل هذه الصدمات، حدث أن أصيبت بالتهاب حاد فى اللوزتين، بينما كنت طفلة، ظلت ساهرة بجوارى لم يغمض لها جفن،

ولم تفارق فراشى إلا بعد أن تعافيت، كما مرضت صفية بحمى منذ شهور قليلة، حملتها أمى على الفور إلى الحميات، وبقيت بجوارها يؤرقها السهر ليالى طويلة إلى أن شفيت تماما.

ترتب على ذلك حرماننا من رعايتها، وخاصة أنا، كان الوالد يصحب شريف إلى ورشة النجارة، بينما يسألنى البقاء مع أولاد الجيران، ونتيجة للإهمال أصيبت بحرق فى ذراعى، أثناء اللعب مع رفيقة طفولتى، لحظة أن حاولنا الاستيلاء على زجاجات فارغة، من المصبغة المطل عليها بيتنا، لاستبدالها بعرائس من الجير، فقد أشجانا صوت البائع (عروسة بالجزايز، حصان بالجزايز).

فى لمح البرق أسرعنا الخطى لنبحث عن زجاجات، لم نجد سوى مصبغة الملابس، لحظتها فقدنا القدرة على التمييز، بين الزجاجات الفارغة والأخرى المتبقى بداخلها مادة كاوية، وعلى الأرجح (مية نار) حرقت النار ذراعى بشكل مفزع، عندما احتضنت واحدة وحاولت العودة بها، بينما رفيقتى سهيرأصيبت بضرر بالغ الخطورة، حيث طالت النار بطنها وقد أكلت معظم ملابسها الداخلية، وكاد يغمى عليها.

على الفور أمسك بنا بعض عمال المصبغة، أفزعتهم صرخاتنا، وحملونا لأقرب مستشفى وتم إسعافنا، وظلت جراحنا لفترة طويلة شاهدة على ماارتكبناه من جرم غير مقصود، وإذا سألت زوج أمى أن يعطينى بعض النقود، يصرخ بأعلى صوته:

— لما تلاقى اللقمة اسألى عن المصروف.

والغريب أنه يعطى أخى شريف مصروفه اليومى دون أن يطلب منه شيئا ترك ذلك فى نفسى أثرا سيئا، وأحدث بيننا فجوة، ظلت تتسع، ولم يسء معاملتى فقط بل امتدت قسوته إلى أمى أيضا، لحظة أن تسأله ليزيد مصروف البيت حيث لايزيد عن الخمسين قرش، ولم يكن فى استطاعتها تلبية اجتياجاتنا الضرورية من مأكل وملبس وإيجار، ولم يكن هذا القدر الضئيل يكفى حتى القوت الضرورى.

يقول لها بانفعال وغضب:

— احمدوا ربنا على ما هو آت، وإلا هتزول النعمة من وشكم.

تصمت أمى خوفا من الفضيحة، وشماتة بعض الجيران وخاصة زوجة عمى التى تقيم بالدور الأرضى، وتضطر للاستدانة من دلالة حينا (أم بدوي) لتستر عورتنا وتسد الأفواه الجائعة.

هل بعد ذلك ألومها على إخفائها للحقيقة، ربما فعلت ذلك لخوفها علىَّ وتجنبا لجرح مشاعرى، والتفرقة بينى وبين أخوى، ولا شىء إلا أن أكتم فى نفسى مرارة الألم وألوز بالصمت، وأحاول جاهدة البحث عن وسيلة للخروج.

* * *

سهير هى مرفأ الأمان الوحيد، التقيت بها منذ بضعة شهور، عقب وفاة والدها، وعودة أمها لتعيش معها، فقد باعد بيننا الزمن، رغم قرب المسافة فى السكن، فالزقاق الذى تقيم فيه ليس ببعيد عن حارتنا، الظروف وسوء معاملة والدها لى بينما كنت طفلة، فرقتنا لسنوات، لابد من مقابلتها، ربما تدلنى

على وظيفة، ولو بسيطة تخفف عنى بعض معاناتى، تعمل منذ سنوات، وأعتقد أن لها اتصالات ببعض المسئولين، ويا حبذا لووجدت بجوارها مكانا أرتاح فيه وأبتعد عن بؤر الفساد التى تؤرقنى، يقلقنى فقط عدم سؤالها عنى طوال سنوات البعاد، رغم العلاقات الحميمة التى تربطنا منذ الصغر. كنا ندرس فى التعليم الإبتدائى، نتساوى فى التفوق، ربما تشعر بالحرج حاليا لأنى تفوقت عليها فيما بعد.

* * *

على ضوء مصباح كيروسين، تحسست طريقى بينما أصعد درجات ذلك البيت القديم، الآيل للسقوط، والكائن فى إحدى الأزقة، بدى منظره كئيبا تحت جنح الظلام، خصوصا أنه محاط ببقايا أطلال، تبدو كخرابة سكنتها الكلاب الضالة والقطط، بل وغدت أوكارا لأرباب السوء، وخصوصا هؤلاء الذين يتاجرون فى المخدرات والسموم البيضاء حيث يقع الذقاق الكائن فيه البيت فى حى الباطنية، وصلت للطابق الأخير حيث تقيم أسرة سهيرفى حجرة صغيرة، فوق سطح ازدحم بالكهن والكراكيب. شعرت بالإرهاق، ألقيت بجسدى المتعب على مقعد قديم، كاد يسقط، نهضت فى الحال، ظهرت سهير، خلتها شبحا، خرج توا من إحدى الكهوف، لم أصدق، كيف صارت زهرة ذابلة، كأن مصائب الزمن أوشكت أن تفتك بها، مددت يدى لأصافحها، بينما بصيص من ضوء خافت، تسرب من الحجرة الوحيدة

التى ازدحمت ببقايا أثاث قديم، فكسر بعض الظلام، وقفت سهير فى ركن ما من السطح، تضحك فى هستيريا، لم تشعر

فى البداية بوجودى، أفزعتنى الدهشة وسبحت مع الذكريات..

طوال سنوات التعليم الإلزامى، وحتى المرحلة الإعدادية، كنا صديقتين متفوقتين، ترتيبى فى الفصل الأولى دائما وهى الثانية، وللأسف هبط مستواها فى نهاية المرحلة الإعدادية، مسكينة كانت شعلة من الذكاء والحيوية، سمراء خفيفة الظل، وسيمة ومرحة.

سألت بصوت مخنوق وهى تقترب:

- ماجدة، صديقتى العزيزة، عاش من شافك.

ازداد اقترابها كأنما تود لو تدفن أحزانها فى صدرى، احتضنتها بحنان ثم سألتها:

- سهيرلم أرك منذ سنوات طويلة، ولا تصلنى أخبارك، ماذا حدث وما سبب هذه القطيعة؟

أجابت بحزن عميق:

- لم يحالفنى الحظ فى التعليم، توفى والدى وقد باع كل أثاث البيت، لينفق على صديق السوء، الخمر، واضطرت أمى للعمل مربية، لم أرض بهذا الوضع، حاولت أن أجد وظيفة بالإعدادية، لم أجد سوى غول القهريطاردنى، قاومت فى البداية، ثم ضعفت واستسلمت، أشعر بأنى أسبح فى بحر واسع متلاطم الأمواج ملئ بالحيتان المفترسة، لا أقوى على المواجهة، أحيانا يؤرقنى الذنب، يشفع لى ضرورة إطعام أخواتى الخمسة، فأكبرهم فى الإعدادية وفى حاجة لمصاريف بالإضافة لدواء أمى حيث مرضت برومانيزم فى القلب.

اغرورقت عيناىً بالدموع، تماسكت وقلت فى محاولة لتهدئتها:

– طريق الخير مفتوح دائما، وفى إمكانك أن تطرقى بابه، وبالصبر والإيمان تعودين للفتاة الطيبة، والنقية كما كنت من قبل.

قالت بسخرية:

– نقية، حتى لو تطهرت، فعار الرزيلة يسرى فى دمى، ميكروب خبيث ينغرس فى عظامى كالإبر المسمومة.

ساد صمت، ارتفع صراخ مصدره الحجرة الوحيدة بالشقة.

– نريد طعاما يا ماما، لم نأكل منذ الصباح، همست الفتاة فى أذنى متوسلة:

– أرجو ألا تخبرى أمى بما دار بيننا، حالتها سيئة ولا تحتمل صدمات أخرى.

ربت على كتفها مهدئة:

– إطمئنى، وضعى فى بطنك بطيخة صيفى.

رثيت لحالى، كيف أواسيها وأنا فى أمس الحاجة لمن يأخذ بيدى، من شاف بلوة غيره، هانت عليه بلوته.

نهضت الأم مذعورة من فوق سريرها، وقالت لتهديء من روع أبنائها:

– كفى فضايح، أختكم فى الطريق، ستأتى حالا ومعها الطعام والحلوى وستبتاع لكم كل طلباتكم .

غـادرت السـرير، ثـم هرولـت للخـارج، بـدت نحيفـة، ارتسـم الشـحوب علـى وجههـا، ترتـدى جلبابـا أسـود ذو لـون باهـت.

قالت بغضب عندما لمحت إبنتها:

— عدت قبل ميعادك ليه يا بنتى، طردوك من الشغل ولا إيه؟

أجابت فى محاولة للهروب وهى تشير إلىً

— انظرى، من هنا، صديقة الطفولة، ماجده يا أمى.

قربت الأم مصباح الكيروسين من وجهى، ثم صاحت بفرح:

— اعذرينى يا ماجدة يا بنتى، هموم الزمان نسيتنا نفسنا.

طبعت قبلة على جبهتها الباردة وواصلت:

— كنـت دائمـا تطلبـين مـن سـهير أن تذاكـر معـى طـوال الوقـت، لتتفـوق مثلـى.

قالت بأسى:

— كل شـيء قسـمة ونصيـب يـا بنتـى، اتفضلـى اشـربى معنا الشـاى، ولا نعد العشـا؟

— جيت لك يا عبد المعين تعينى، لقيتك عايز تتعان.

ساد صمت، واصلت الأم فى انكسار:

— الحمد لله، ربنا رزق سهير بوظيفة ناكل منها عيش.

تمنيـت لـو أوضـح لهـا الأمـور، ربمـا تؤثر علـى ابنتهـا ويتـم إنقاذها قبـل أن تتضخـم المشـكلة وتضيـع المسـكينة، خشـيت مـا نبهتنـى إليـه

سهير وأعيش بعدها نادمة، يطاردنى عذاب الضمير، واكتفيت بأن أدعو الله لهم بالرحمة.وأن يفتح لصديقتى بابا آخر، يقيها من شر الرزيلة.

آن لى أن أذهب، لم تتركنى الأم أغادر المكان دون أن أحتسى معهم الشاى، فى تلك الحجرة الصغيرة، والمزدحمة بقطع الأثاث القديم، بينما الأطفال يرقدون على فراش رديء، منهم من تمدد على أريكة قديمة، والبعض الآخر افترش الأرض.

قالت وهى تعد ترتيب الفراش:

– كيف نتركك بعد كل هذا العمر ولا نعمل الواجب.

اتجهت نحو الباب لتنادى إبنتها لتحتسى معنا الشاى، لم ترد، نادت مرات، دون فائدة وكأن المسكينة تاهت وابتلعها الظلام، فتشت فى كل ركن بالسطوح على ضوء المصباح، لم أجد لها أثرا، كأنها فص ملح وذاب.

قالت الأم بحزن:

– لاتتعبى نفسك.. فى أوقات كثيرة وخصوصا فى وقت متأخر، تخرج ولا تعود إلا بعد منتصف الليل، وإذا عاتبتها تغضب وتبرر غيابها بأنها تعمل مضيفة فى شركة طيران:

– أهل الذقاق يا بنتى زعلانين منها و جرحونى أكتر من مرة.

* * *

استيقظت مع أول خيط للنهار، لم أكن فى حالة طبيعية، انتابنى بعض الضيق والإختناق، ربما من أثر الرؤية المخيفة حيث زلزلت كياني وانتفضت فزعة، لحظة أن شعرت بأصابع خشنة، تنغرس فى كتفي اعتقدت فى البداية، أنها كف رمزى، ربما من كثرة تفكيرى فيه كثيرا هذه الأيام ، كم أتمنى أن يعيش بجوارى، يخفف عنى بعض آلامى، أحتاج إليه كثيرا، فقط يبعدنى عنه الحلم المزعج، الشجرة والثعبان، والذى يهاجمنى من آن لآخر، تزداد المسافة بيننا، بل بينى وبين أى رجل، حتى لو كان قلبى ينبض بحبى له، وتربطنى به ذكريات جميلة..

منذ سنوات، بينما نقضى الأجازة الصيفية، فى كفر الغلابة، بصحبة خالتى وأبنائها، نستمتع بجو الريف النقى، وسحر الطبيعة الخلاب في ساحة الحقول الخضراء.

صحوت ذات صباح مبكرا، لألحق بأولاد خالتى فى الغيط، كان علىَّ أن أمرمن أرض خلاء، يطلق عليها، الجرن، يدرس فيها الفلاحون المحاصيل، فى لحظة وجدت نفسى وحيدة، وقد التف حولى مجموعة من الكلاب الضالة، ولا أدرى من أين جاءت، ربما تسكن الجبانة المجاورة للجرن، صرخت والكلاب تعوى وهى تقترب منى فى محاولة للإمساك بى، بينما تيار الهواء الشديد يحول بيننا، حيث راح يعاكس فستانى الحرير ويضلل حركاتها.

لم يتركنى رمزى فى هذا الخلاء المخيف، دقائق ووجدته أمامى، وفى لمح البرق راح يطارد الكلاب بالطوب، وبجرأة تفوق عليها رغم سنه الصغير فهو يسبقنى بعامين، وكنت حينئذ فى السنوات الأخيرة من التعليم الأولى، وعلى الفور أحضر بعض الماء

من الترعة القريبة، ونثره على وجهى، ثم اصطحبنى إلى الدار وهو يحيطنى بذراعيه، لحظة أن لمحتنى خالتى فى حالة دوار، أعدت فى الحال، طاسة الخضة وهى خليط من الخميرة والعسل الأسود، سألتنى أن أشربها جرعة واحدة لأستعيد توازنى ويزول الخوف.

ما أجمل أن يجد الإنسان من يحميه، ويقف بجواره، يدفع عنه الخطر، ويا حبذا لو كان بجوار الأنثى رجل يحميها ويحنو عليها.

* * *

فتحت شباك الحجرة، ألقيت نظرة على تلال الدراسة من خلال الأعمدة الحديدية، السماء محشوة بضباب أشبه بشبورة كثيفة، أخفت معالم التلال وبدت كالأشباح المخيفة، حاولت استرجاع ما حدث منذ لحظات بينما كنت نائمة بجوار أخواى، وقبل أن يزيح الفجر ستار الليل غبت عن الوعى قليلا ؛ أقف فى بيت مهجور.. يشبه بيتنا..جدرانه عارية كساها اللون الرمادى الداكن، انتشرت الشقوق فى كل الأركان، كدت أن ألمس ثعبانا كبيرا، أسرع بالقفذ إلى أعلى، واختفى فى أحد الشقوق بجدار البيت، قمت فزعة، تناولت كوبا من الينسون الدافىء، بررت ما حدث ربما شبح الخوف المسيطر علىَّ، فالجامعة ستفتح أبوابها قريبا، ولم أوفر بعد قيمة ابتياع الأوراق المطلوبة، فالأحلام غالبا مردودها الواقع المعاش، خاصة إذا كان واقعا مترديا، لكن ماذا يعنى هذا الثعبان؟

تذكرت تفسير جدى رحمة الله عليه لبعض الأحلام، فالثعبان فى المنام كما يرى، يرمز للعدوَّ، وإذا تم قتله يعد هذا انتصاراللإنسان

الـذى يتربـص بـه، أمـا إذا فـر هاربـا، يظـل الصـراع قائمـا بـين الإنسـان وعـدوه إلى أن ينتصـر أحدهمـا علـى الآخـر.

فـإذا كان الأمـر كذلـك فعدوىيختـبيء فـى ركـن مـا بهـذا البيـت ولم أفلـت مـن غـدره بعـد.

بـدأ الضبـاب يـزول بالتدريـج ثـم ظهـرت خيـوط الشـروق وراحـت تنتشـر ببـطء شـديد، نهضـت علـى شـجار بـين أمـى وزوجهـا حـول مصـروف البيـت الضئيـل، وبـدلا مـن أن يشـفى غليلهـا بكلمـة، اشـتعلت فـى نفسـه نـار الغضـب، وخـرج دون أن يبـل ريقـه بجرعـة شـاى، بينمـا يرتـدى نفـس ملابـس العمـل منـذ عودتـه بالأمـس، بنطـالا وقميصـا، شـوهت معالمهمـا نشـارة الخشـب والغـراء، ويـردد فـى ضيـق:

– يـا خسـاره، أشـقى واتعـب طـول النهـار، علشـان شـوية أنـدال، الـكلاب أوفـى منهـم، حـرام عليكـم، كفرتونـى، العيشـة معكـم تغـم البـال.

استيقظ شـريف علـى الفـور، ، لحقـت بـه صفيـة، قـالا فـى صـوت واحـد وهمـا يقتربـان مـن أبيهما:

– المصروف يا بابا، إحنا رايحين المدرسة.

سـألتنى أمـى أن أعـد لهمـا السندوتشـات مـن قطـع الجـبن المتبقيـة مـن عشـاء الأمس.والفـول النابت.

لحظـات وبدلـت ملابسـى، واتجهـت نحـو بـاب الخـروج، سـألتنى أمى بدهشـة:

– رايحة فين، الصبح بدرى؟

– أبحث عن عمل، لا أعتقد أن أحدا سيتحمل نفقات تعليمى.

– تناولت فطورك؟

– لا شهية لى.

اتجهت ببصرها نحو السماء وقالت:

– ربنا يسهل لك الطريق، ويجعل لك فى كل خطوة سلامة، ويرزقك بوظيفة تعوض صبرك خير.

* * *

وقفت مبهورة أمام لوحة خشبية، علقت أعلى باب رئيسى لحان كبير، أستغل كمكتبة، لحظة أن وقعت عينى على منابع الثقافة، بهرتنى عشرات الكتب المتنوعة، بعضها عربى والآخر أجنبى، وفى ركن بارز من الحائط، علقت صورة بالحجم الكبير للزعيم جمال عبد الناصر، كعين حارسة لتراثنا العريق، والذى احتل أركانا هامة من أرفف المكتبة، رصت الكتب بنظام ودقة، دبت الحيوية فى نفسى وشعرت بالشبع رغم إحساسى بالجوع منذ الصباح الباكر، ولم تكن مكتبة صغيرة بل شغلت مساحة كبيرة من ميدان العتبة، وفوق اللوحة رأيت نقشا بديعا، صمم بأنامل فنان عبقري؛ مجموعة من القلل الفخارية، يخال للرائى أنها مجسدة وتناديه ليرتوى، تتساقط بعض قطرات الماء من فيها، بينما كتبت كلمات.. إشرب يا عطشان..

شعرت بالإرهاق لدرجة أن قدمى، كادتا تنخلعان منى، فقد قطعت المسافة من حارتنا بشارع فاطمة النبوية بحى الدرب الأحمر، ومنه إلى بوابة المتولى ثم اتجهت لباب الخلق بينما رياح الخماسين تدفعنى فى ذلك الجو الخانق حيث الوجوه المكفهرة وسواعد الشقاينين.

فى لحظة اصدمت قدمى ببعض الكتب المصفوفة فوق الأرض والمتكدسة كالتلال، مما أدى إلى سقوط بعضها رغما عنى، بينما عيناى مازالتا مثبتتين على ذلك الأثر الرائع، تلك اللوحة الخشبية، كدت أتعثر بينما أنظر إلى أسفل، وإذا بى أجد إحدى الكتب تسقط، لتلحق بذويها، شدنى، انحنيت، أحسست أنه يحتوينى، دقائق وخرج رجل طويل القامة ونحيف من داخل المكتبة، تدل ملامحة على الطيبة والتسامح، بينما يسكن الحزن فى عينيه رغم أنهما تشعان بالمعرفة، أطفأ سيجارته، اقترب ثم قال:

— البؤساء لفيكتور هوجو، هل أعجبك؟

أمسكت بالكتاب وأجبت بصوت ضعيف:

— آسفة، سقط رغما عنى.

اقترب منى أكثر، راح يتأملنى بعمق، كأنما يحاول النفاذ لأعماقى،

إلتقطه فى الحال وناوله لى وهو يقول :

— خذيه هدية، يبدو أن لديك رغبة فى الثقافة.

احتضنت الكتاب، ثم شكرته، وبينما أهم بالرحيل إذا به يستوقفنى قائلا:

— تسمحى لى بدقائق من وقتك؟

تملكنى الخوف، اتجه داخل المكتبة، مارا ببطء من خلال عشرات الكتب المصفوفة، فى كل ركن بالقاعة الفسيحة هذه ؛ كم أشتهى تلك الأصناف الرائعة من هذه الوجبات الدسمة والتى تغذى الفكر، وتروى ظمأ المتعطش للمعرفة، على أغلفة بعضها قرأت أسماء لكتاب مرموقين، نجيب محفوظ، يوسف إدريس، طه حسين، عباس العقاد، توفيق الحكيم، عبد القادر المازنى، محمد عبد الحليم عبد الله، أشار لى بالجلوس على مقعد من الجلد القديم ثم قال:

— فى إمكانك أن تصبحى مثل هؤلاء؟

أجبته بيأس:

— كيف ولا أستطيع مواصلة تعليمى الجامعي؟

اقترب أكثر، وقال هامسا بينما يلمس كتفي:

— يبدو أن بك ألما دفينا، أتمنى لو تحكى لى، اعتبرينى مثل أبيك أو أخيك، يوضع سره فى أضعف خلقه.

استدعى صبى القهوى المجاورة وسأله أن يحضر لى مشروبا دافئا إحتسيت بعض ما فى الكوب من ينسون، تسربت الطمأنينة إلى نفسى وقلت:

– حصلت على الثانوية بتفوق، وللأسف لا أجد مصاريف تقديم أوراق الإلتحاق بالجامعة.

فى لمح البرق فتح درج مكتبه، ثم أخرج ورقة من فئة العشرة جنيهات قدمها لى وهو يقول:

– خذى هذا المبلغ بصفة مؤقتة.

غادرت المقعد، وهممت بمغادرة المكان وجسدى يرتعد من الخوف لحق بى، استوقفنى قائلا:

– لا تفهمينى خطأ، الدنيا لسه فيها خير، وفى إمكانك إعتباره سلفة .

لم أكن أنوى الخروج قبل اختطاف هذه الورقة، هى أملى الوحيد فى تحقيق حلمى، خشيت فقط أن يكون هناك خطر ينتظرنى، لذلك تراجعت لدرجة أن خطواتى تعثرت بينما أتجه لباب الخروج.

أفقت على صوته :

– تشتغلى معايا؟

انتفض جسدى من الفرحة، كأنما هزتنى نسمة الربيع وسألته بلهفة :

– هنا فى المكتبة؟

أخذ مكانه على مقعده أمام مكتبه الكبير، وراح يشير إلى بعض كتب العباقرة من الأدباء والمفكرين..

- هؤلاء الذين قرأت أسماءهم، يطوفون بهذا المكان من حين لآخر، لينهلوا من المعرفة وهم فى حاجة لفتاة مثقفة مثلك وطموحة أيضا، تقلب فى دهاليز الكتب، وتقدم لهم ما يرغبون، بالإضافة لبعض السائحين الذين يحتاجون للكتب الأجنبية، وهى هنا بوفرة ومتنوعة أيضا، وبالطبع لن أجد أفضل منك يقوم بهذه المهمة، ولا يتطلب منك هذا سوى قراءة عناوين الكتب، أشار على صورة الزعيم وقال:

- لاتنسى أنه أحد العباقرة الكبار وله كتب قيمة هنا، تعتلى هذه الرفوف.

همست بحزن:

- عبد الناصر لم يكن زعيم الأمة فقط ولكنه أبونا الروحى.

إغرورقت عيناه بالدموع وواصل:

- مما أثر فى نفوسنا وفى نفسه على وجه الخصوص أن السوفيت خزلونا، وقد حزرونا من الحشود الأمريكية ضد سوريا، توقفوا فى منتصف الأزمة، أمريكا مدت إسرائيل بمعدات نووية، وأجهزة تفجير، تضمن لإسرائيل طمأنينة، أن تعرف أن هناك قنبلة نووية واحدة على الأقل، كما أمدتها بشحنات من معدات الحرب الإلكترونية أدت إلى عمى رادارى مصرى، كما كشفت لإسرائيل كل رسائل القيادات العسكرية والسياسية العربية أيضا، كما تم إرسال جزء من معدات طيارين وطائرات، وتنسيق تحركات الأسطول الأمريكى.

ساد صمت، قلت فى أسى:

- ومن هنا كانت النكسة.

- والغير مسئول هو عنها.

- من لنا بعده؟

- استقر الرأى أخيرا على اختيار ذكريا محى الدين رئيسا للجمهورية عقب تنحى عبد الناصر لأنه عضو مؤسس فى مجلس قيادة الثورة، وأقدم الأعضاء الباحثين، ولأنه وطنى وعقله منظم، يستطيع أن يلم الناس ويكسب ثقة الحيش، وسمعته طيبة.

بدأ الضباب ينقشع بالتدريج، وأطلت الشمس لتفرد ثوبها على الكون، تبعث الدفء فى النفوس، حمدت الله، آن لى أن أتحرر، وتمضى سنوات العذاب بلا عودة، وربما أشفى من المرض الذي يؤرق حياتى، وأتمكن من رعاية أمى وأخواى، ولن أنساهم مهما حييت وليذهب هذا الأب المزيف إلى الجحيم.

هز الرجل كتفه وقال:

- أين ذهب فكرك، ألم تعجبك الوظيفة؟

أجبته بلهجة سريعة وخوف:

- بالطبع أعجبتنى وأشكرك من كل قلبى، ومستعدة للعمل من الآن.

- لا يا عزيزتى، الساعة الآن العاشرة صباحا، فى إمكانك التوجه لمكتب التنسيق.

كدت ألقى برأسى على صدره لأمتص حنان الأبوة.

واصل بينما يربت على كتفي:

— اهتمى بدراستك أولا، وبالنسية للعمل هنا، يكفينى ساعات قليلة من النهار وفى وقت فراغك، وليس طوال أيام الأسبوع، فقط يوم أو يومين وكما تسمح به ظروفك، بحيث لاتفوتك أية محاضرة.

سقطت بعض دموعى، حاولت إخفاءها، اختلط الحزن بالفرح، ربما لشعورى بالخلاص، وقبل أن أغادر باب المكتبة قال بينما يشير إلى اللوحة المعلقة على المدخل:

— كلما شعرت بالعطش تعالى.

— مهما قدمت لك، لن أوفيك حقك

— عمك عزت.

— ماجدة الصاوى.

* * *

نهضت مع أول خيط للنهار، على صوت زلزال، هز كل أركان بيتنا، وكاد من فرط قوته أن يقتلعه من الجذور، وعلى الفور غادر السكان شققهم والفزع يتملكهم، بينما الأطفال يصرخون، لحظات واكتشفنا الحقيقة؛ عمال الآثار يحفرون بمعاولهم القوية فى الأرض الملاصقة لسور بيتنا، بناء على تعليمات هيئة الآثار، قطعة الأرض هذه خراب، يستغلها السكان كمقلب للقمامة، يفصلها عن تلال الدراسة، التى تبدأ من ميدان الأزهر حتى قلعة صلاح الدين، سور عال بنىً من الحجر المتين وقد لوحظ جزء منها غير مستوٍ، ويعلو عن سطح

الأرض بمتر على الأقل، ويخال للرائى أن شيئا ما مدفون تحته.

فى لمح البرق هبط بعض السكان درجات السلم حتى الحوش الصغير حيث مروا من خلال باب قديم، كان مغلقا بصفة دائمة، تجنبا لحوادث الأشقياء من مدمنى المخدرات، وأرباب السوابق المنتشرين فى مخابيء تلال الدراسة، تعالت صرخات السيدات المتجمهرات فى وجوه العمال:

— ارحمونا الله يرحمكم، البيت قديم، وآيل للسقوط، كل شهر نخصم من قوتنا وقوت أولادنا ونرمم جزءا منه .

قال بعض العمال وهم يواصلون الحفر بمعاولهم:

— إحنا بننفذ أوامر هيئة الآثار، بناء على تعليمات الباحثين، أفادوا بوجود كنز فى المكان ده.

بعض السيدات صحن فى ذهول، وشارك معهن آخريات، أطلت رؤوسهن من الشرفات:

— كنز! ، الكنز ده من نصيبنا، إحنا غلابة، وربنا عالم بحالنا.

لحظة أن هلت خيوط الليل، شردت قليلا ورحت أفكر فى مصيرى، غلبنى النعاس؛ شيء ما شدنى للخروج، هبطت درجات السلم، توقفت قليلا أثر اصطدام قدمى اليمنى بحجر صغير تحت بير السلم وبالقرب من الباب الخشبىً القديم، الموصل لمكان الحفر، شعرت بألم شديد، سمعت صوتا كاد يخرق طبلة أذنىً، يسألنى أن أحفر تحت قد مىً، فى لمح البرق عدت لشقتنا، حملت بعض أدوات النجارة الخاصة بزوج أمى، لحظة أن بدأت الحفر، لمع

بريق بعض الأشياء، أبهرتني وزغللت عينيَّ في الحال أخذت حفنة منها، ثم صرخت بفرحة غامرة..

أحجار كريمة؛ يا قوت، مرجان، زمرد، أحمدك يا رب، ضمنت العيش في أمان لحين تخرجي من الجامعة، واستلام الوظيفة.

أفقت لأجد الدموع تغرق وجنتيَّ، لحظة أن اكتشفت أن ما عثرت عليه كان وهما وسراب.

أخرجتني أمي من شرودي، وقد خرجت بصحبة أخوي لمشاهدة ما يدور من خلال فتحات الشباك الكبير، ذي الأعمدة الحديدية في حجرتنا الكبيرة، والمطل على موقع الحفر مباشرة، قالت لجارة جاءت لتشاهد معنا:

- لو وزعوا الكنز علينا يا ام محمد، يرحمنا ربنا من الفقر والعذاب، ولا استغلال أم بدوي الدلالة، لو طلبت منها مريلة ولا شنطة شكك، تدفعي بالتقسيط ما يساوي تمنها مرتين.
- لاتنسي يا ام شريف أن بالها طويل، وممكن تقسط المبلغ على شهور أو سنة حسب الحالة، يعني بتراعي ظروف الزباين.
- ربنا يجازيها على فعلها للخير، ووقوفها جنب الغلابة، لولاها لتعرى ولادنا ومشيوا حفاة.

هدأت العاصفة قليلا، ساد الهدوء كل أرجاء بيتنا، وخاصةعندما كف العمال عن التخريب في جدار البيت الخلف وتجمعوا ليتناولوا إفطارهم ويحتسوا الشاي، حيث راحت الأكواب تهبط عليهم من نوافذ الجيران القريبة من مكان الحفر.

قال رئيس العمال للسكان المنتظرين:

- اطمئنوا، كلها أيام قليلة وينتهى العمل، ونكون اكتشفنا الكنز، ويمكن تعبنا يروح على الفاضى، ولا نلاقى شيء من هذا القبيل.

قالت سيدة مسنة من الجارات:

- فال الله ولا فالك، فيه كنزوهيكون من حقنا بإذن الله، أنا يا ابنى أرملة ومسنة، ولا حد بيصرف علىَّ بعد وفاة جوزى، كان أرزقى، بس كنا مستورين.

أجاب الرجل بتعجب:

- الكنز يا أمى ملك الحكومة، ولا أحد يمكنه التصرف فيه، وإلا يكون مصيرنا السجن.

قالت السيدة بيأس:

- هى الحكومة يا بنى، راح عائلها مثلى، ولا حولة ولا قوة!

قطعت أمى الحديث فى حسرة:

- مات أبونا واخونا وحبيب الملايين، ألف خسارة يا مصر.

صرخت على الفور:

- بابا جمال، عائلنا وابو الشعب، طول عمره مع الفقراء، إعتصرنا الحزن لحظة فراقه الرهيب، كان حلما يراودنا بأن يكون لنا كيان مستقل، لولا النكسة، أكبر صدمة حفرت فى أنفسنا نهرا من الأحزان، كان علينا أن نلتف حوله، هو زعيمنا ومرفأ الأمان لنا، يا ويلنا كيف سنواجه مصيرنا المجهول بعده؟

obeikan.com

واصل عادل إبن صاحب البيت والحزن فى عينيه:

— كان رمزا لكل آمال الأمة العربية، وزعيما حتى بعد الهزيمة، أصر على المقاومة، وحمل نفسه مسئولية النكسة، وعاهد نفسه أن يواجه كل المصاعب، وكان قادرا لولا الموت الذى ظل يحوم حوله كنسر، ظل يحلق ويحوم حول فريبسته، إلى أن حانت اللحظة الحاسمة، فاختطفها وطار بعيدا، وبلا عودة، ظلت روحنا متعلقة به وكأنما نود لو نطير معه لولا أن ألهمنا الله الصبر.ولا شيء غير الصبر والكفاح لنواصل المسيرة

* * *

ظل العمال يحفرون لبضعة أيام، يبدأون منذ الصباح الباكر، ويرحلون قبل آذان الظهر بقليل، حيث معظم الرجال من سكان بيتنا مشغولين فى أعمالهم، بينما زوجاتهم يبتعن متطلبات البيت من سوق المغربلين، ومعظم الأبناء فى المدارس.

إنتابتنى رغبة ملحة فى متابعة ما يدور، أخفيت نفسى وراء شيش الشباك الحديدى، فما زال الأمل يراودنى فى العثور على شيء ثمين، أريد فقط أن أمسكه بيدى حتى لو لم أمتلكه، وإلا فما معنى الحلم الذى زارنى فى إحدى الأمسيات القريبة، وما هى إلا ساعات قليلة وتعرت الأرض، لتكشف عما فى أحشائها، لمحت ما يقرب من مائتى، من أصص الزرع المصنوعة من الفخار، والملونة بشكل مبهج وكأنها مصنوعة بيد فنان ماهر فى التو واللحظة، رصت بشكل منتظم على امتداد السور البالغ طوله عشرة أمتار وعرضه خمسة، بينما الجزء المرتفع عن مستوى

الأرض، كشف عن حجرة صغيرة ذات سقف، على شكل قبة جامع، بنيت بالحجارة البيضاء الكبيرة والمثبتة جيدا، ملحق بها سلالم من الرخام الناصع البياض.

لمحت بعض السكان، يطلون مثلى من منافذ شققهم، لحظة أن تأكدوا من عدم وجود مجوهرات، اكتفت كل سيدة بأخذ بعض أصص الزرع رغم أنف العمال مما جعلهم يسرعون بإحضار عربة كبيرة لنقل هذا الكم الهائل من هذه المقتنيات إلى حيث لا نعلم.

حفظت كل سيدة ما حصلت عليه داخل شققهن ثم عدن يتهامسن وتداخل الهمس..

- أخفى العمال الذهب والأحجار الكريمة فى غفلة منا، لو تفرغ بعضنا لحراستهم طول مدة الحفر لعرفنا الحقيقة.
- كان نفسى فى فص عقيق أحمرولا اتنين، لو لبسته الواحدة منا فى إصبعها، عمرها ما تشوف شياطين ولا تزعجها فى نومها كوابيس:
- ويمنع الأعمال اللى بتسبب الأذى، أختى اشترت فص من خان الخليلى، وعملته خاتم لبنتها، لتمنع شر حماتها، كانت دايما تدفن لها العمل تحت عتبة باب شقتها، غرضها تفرق بينها وبين جوزها، لأنه بيعشقها، وامه ست غيوره.
- فى إمكاننا نفتش العمال قبل ما يرحلوا، الكنز من حقنا وحق ولادنا والكنز فى بيتنا، يمكن أخفوه، وهيوزعوه على أنفسهم.

قبل رحيل العمال بأيام قليلة، لمحت من خلال فتحات شباك حجرتنا الحديدى، أحدهم يعثر على قبقاب ذى كعب عال من

الخشب والمزدان بقطع من الذهب، حيث كان يبرق تحت أشعة الشمس، بهرنى منظره، وخاصة لحظة أن صاح أحد العمال بفرحة:

— قبقاب قطر الندى.

— فى لمح البرق، اقتربت أكثر من فتحات الشباك، وتمنيت لو أنفذ منها كطائر وأهبط لأخطف هذا الأثر الجميل:

— وحياة النبى ممكن أحصل عليه؟

أسرع العامل بإخفائه فى كيس من القماش، ثم قال بخوف:

— ممكن لو دفت عشرة جنيهات.

بالطبع أصيبت بالإحباط، الشديد، وخيبة الأمل، فلا أملك جنيها واحدا.

بعد وقت ما لمحت عاملا آخر، يلتقط من ركن ما فى الأرض عقب الحفر، بعض الأحجار الملونة، بالإضافة لمجموعة من التماثيل الصغيرة ذات الأشكال المختلفة والمبهجة.

وددت لو أهبط درجات السلم فى ثوان، لأتفاهم مع العمال وأساومهم على ما كل ما معى من نقود وهى بالطبع معدودة، ولا تصل لربع ما طلبوه من مال، وقبل أن أخطونحو أول درجة أصابنى الفزع، لحظة أن سمعت أحدهم يصرخ، من داخل الحجرة الرخامية، ذات القبة السماوية،

حيث كشف الحفر عنها من قبل، طالبا الاستغاثة:

— الحقونى، ثعبان كبير يهاجمنى.

obeikan.com

– تسمر العمال فى أماكنهم وقد تملكهم الذعر.

قال البعض فى هلع:

– حلت علينا لعنة الفراعنة.

فى لمح البرق، أخرج أحدهم من جيب سترته حفنة من الأحجار الملونة والتماثيل الصغيرة، وألقى بها لتختفى فى زحمة التراب المتراكم، ثم قال فى حزن:

– ليته لم يدخل، كان يرغب فى العثور على المزيد من التحف، فى لحظات سكت الصوت الصارخ، بينما خرج يتلوى من داخل القبوً ذلك القاتل بالسم، يترنح ببطء لحجمه الضخم، وطوله البالغ خمسة أمتار تزغلل الأعين ألوانه البديعة والتى تزين جلده الأملس، وكأنه أحد ملوك الفراعنة المتوجين، ينزل عن عرشه، ليتفقد أحوال الرعية، ويحاسب من يريد هدم مملكته، ونهب أموالها.

تراجع للوراء أحد العمال، ثم قال فى خوف بينما يشير إليه:

– هذا هو الملك، حارس الكنز.

صرخ البعض وهم يحملون آلاتهم الحادة:

– هل ننتظر حتى يقضى علينا جميعا.

فى لحظة اقترب أحدهم بجسمه الضخم، والشرر يتطاير من عينيه ثم ضربه على أم رأسه بآلة حفر حادة فأصابه بدوار، حاول الثعبان أن يرفع رأسه لينتقم، عاجله بأخرى، تلتها عدة ضربات إلى أن لفظ أنفاسه.

سرى الرعب فى نفوس السكان، كسريان النار فى الهشيم وحمدوا الله، فأياديهم لم تمس الكنز، وتجمهر بعض المارة، الذين اعتادوا السير من طريق تلال الدراسة، ظلوا يتأملون العامل ذو الجسم الضخم، وهو يحمل الثعبان على عصا غليظة، ثم اعتلى أحد التلال العالية وألقى به وهو يبكى على زميله الذى راح ضحية.

سأل أحد العمال:

- كيف يموت الملك؟

- أجاب آخر..

- إذا كان الكنز تم تخريبه، فلماذا يعيش حارسه، ولا تنسى أن الأنبياء والملوك يموتون أيضا، ولا أحد يبقى هلى وجه البسيطة، ويدرككم الموت من حيث لا تعلمون.

واصل ثالث فى خوف:

- هذا جزاءنا، بدأنا بالعدوان، قمنا بهدم عرش الملك، ونهبنا ثرواته.

ساعات قليلة مرت وحضر بعض رجال الآثار، وتجولوا فى كل ركن بالمكان، ثم جاءت عربة الإسعاف وحملت الجثة إلى المشرحة، وبعد أن رحل الجميع غلفت الرهبة أرض الكنز، ساد السكون، وكسى التراب القبوَ الرخامى، وعادت القمامة كما كانت تحتل عرشها القديم، ولم تعد آثار أجدادنا تبين للبعض، بل وتحول المكان مع مرور الأيام، إلى وكر يؤمه مدمنو وتجار المخدرات، بل والأبناء الجانحون والهاربون من دور الأحداث، يمارسون جرائمهم وخاصة داخل القبو الرخامى ذى القبة السماوية.

أغلق كل السكان النوافذ المطلة على أرض الكنز، خوفا من اعتداء وليفة الثعبان، الملكة، ربما تظهر فى يوم ما لتنتقم لزوجها الراحل، حتى الباب الكائن تحت بير السلم، سدوه بالحجارة المكسورة والمتبقية من الحفر، وحرصت كل أم ألا يقترب ابنها من هذا المكان اللعين.

* * *

قررت ألا أعترف لأمى بعملى فى المكتبة، خشيت أن تأخذ كل ما أحصل عليه من نقود، ولا أجد ما يساعدنى فى مواصلة تعليمى فى الجامعة، فهى متعطشة لكل قرش، لكن شعورى بالرثاء لأحوال أسرتى هذه، وتعب أمى ليل نهار، وإراقة ماء وجهها من قبل، الدلالة، اضطرنى للبوح.

قالت بفرحة بينما ترفع وعاء الطعام من فوق وابور الجاز، وتضعه فوق الطبلية:

— استجاب الله لدعواتى، ألف حمد وشكر لك يا رب.

اقتربت، ربتت على كتفى ثم واصلت:

— لا تنسى أخويك، شريف فى تانية ثانوى، وصفية فى الإعدادية السنة دى، نفسى يا بنتى، كل واحد فيكم يحصل على شهادة، تعينة على مواجهة الحياة، وابوك لاحول له ولا قوة، يعطينا القوت الضرورى، لا أكتر ولا أقل.

كدت أصرخ فى وجهها، لتعترف بالحقيقة، وتبرر لى، لماذا أخفتها عني سنوات ؟

– تعلمين أنه ليس أبى، لماذا تضللينني؟

تلعثم لسانى، ولم أنطق بحرف، أشفقت عليها، وكفى ما تعانيه من آلام.

فتحت درج مكتبى، سحبت كتاب البؤساء، أخرجت من بين أوراقه، بضعة جنيهات، ناولتها لأمى بينما أقول:

– معى فقط عشرة جنيهات، أعطاها لى صاحب المكتبة.

فى لحظة، أخفت المبلغ فى كيس قماش، مربوط بدوبارة ومعلق فى سوتيانها القماش، ثم أعادته لثديها وربطت عليه بقوة وهى تقول بارتياح:

– ربنا كريم وعالم بحالنا، لما يطلع النهار، هشيع لام بدوى، تشترى لكم ملابس جديدة للمدرسة.

– عندك حق يا أمى، شريف خجلان من بنطلونه الوحيد، زينتيه برقعة على الساق، دايما يحاول إخفاءها بالحقيبة القديمة، وصفية اشتكت من مريلتها، دابت من كتر غسلها فى الطشت.

لاحقتنى أمى بحزن:

– الإبرة خرمت صباعى من كتر فتحاتها الكتيرة.

* * *

حان وقت الغروب، تجمعنا حول الطبلية، لنتناول الوجبة الوحيدة الرئيسية، الغداء والعشاء معًا، بضعة أطباق من البصارة، ذات الرائحة النفاذة حيث أجادت أمى طهيها، فالمصروف لا

يحتمل سوى وجبة واحدة فى اليوم، بالإضافة لطبق الفول فى الصباح، وأحيانا نستبدله بالعسل الأسود أو الجبن القريش حيث ترسلها جدتى من الكفر.

قبل أن تقدم صفية على الطعام، أخرجت مظروفا من تحت الوسادة ثم قالت:

— جاءنا فى الصباح مرسال من كفر الغلابة.

واصل أخي:

— فرح محروسة ابنة خالتى بعد أيام قليلة.

التفت إلى أمى واقترب، راح يلح عليها أن تساعده فى السفر، ويكفى أنه لايشارك زملاءه فى رحلات المدرسة، فكم أشتاق لرؤية أولاد خالته واللعب معهم فى الغيط أو لعب الكرة فى الجرن. ولن يرفض والده.

همست أمى بحسرة:

— يا عينى على أبوك، لابيهش ولا بينش، وترك الحمل كله على كتفى.

ألقيت بالخطاب جانبا، وقد فرغت من قراءته بينما أمى ما زالت مشغولة بالحديث مع أخى.

قالت أمى لشريف:

— أبوك يخاف عليك من النسمة.

واصلت صفية بغيظ:

– طبعا ديك البرابر، ولا يوجد على الحجر غيره.

أكملت الحديث:

– السفر فى حاجة إلى مصاريف، ولابد من هدية للعروس أيضا أو على الأقل نقطة، علما بأننا لانقدر على هذا أو ذاك.

ردت أمى بحماس:

– لايقدر على القدرة إلا الله، محروسة أول فرحة خالتكم، ونفسها تسترها وتلمها على عريسها، قبل ما يخطفه الجيش؛ فالحرب على الأبواب.

قلت بخوف:

– فعلا يا أمى، حرب الاستنزاف، هناك بالفعل تحركات للعدو، ليجمع معلومات ويكتسب معرفة تفيده، وقد طالب الرئيس السادات الشعب المصرى، بل الأمة العربية كلها بمواصلة النضال من أجل تحرير كل شبر من الأرض العربية المحتلة منذ عدوان ١٩٦٧ وهى القدس العربية، وغزة، والضفة الغربية، ومرتفعات الجولان السورية، وصحراء سيناء المصرية، مع الحرص الكامل على حقوق الشعب الفلسطينى، وعلى استمرار نضاله فى سبيل تطهير أرضه من أيدى الأوغاد، ومن أجل مصيره، والنضال الحقيقى لهذا الهدف المشروع من نضالنا، يتمثل فى مطلب أساسى واحد..

قالت أمى بلهفة:

- كملى يا بنتى، ربنا يرشدك وينور بصيرتك.

- والمطلب الأساسى هو تعزيز القوة القتالية للقوات المسلحة المصرية لتكون حماية للسلام القائم على العدل، كما شدد على ضرورة مواصلة النضال لكل الشعوب العربية، من أجل وحدة الأمة العربية، ولاننسى أن متناقضات هذه الأمة وتأزمها طبيعى فى مرحلة الماضى التى تعيشها الأمة، ولا يجب أن يلهينا أى شيء عن جوهر الحقيقة، التى طالما نادى بها وعمل من أجلها جمال عبد الناصر، وهى أننا أمة واحدة، تاريخها واحد ونضالها واحد ومصيرها واحد، كما أننا مطالبون بتحديد أعداء أمتنا تحديدا لا شبهة فيه، وأعداؤنا هم إسرائيل والصهيونية الدولية والاستعمار العالمى.

ونحن فى صراع مصيرى معهم جميعا، وهو صراع من أجل الحرية والسلام، ولا ننسى أن الشعب المصرى اللى طلع بعد نكبة ٦٧وهو شعب الأبطال، قال لجمال بكل حماس، ابقى مكانك ولا ترضى بالهزيمة، فإرادة الشعب لايمكن أن تقهر، هذا الشعب هو امتداد لثورة يوليو. قالت أمى بحماس:

- ربنا ينصر الأمة العربية، ويرفع راية الإسلام، تدخل شريف وقال:

- وانا نفسى أحارب.

ساد صمت، تذكرت أمى محتوى الرسالة وقالت:

- لابد من عمل الواجب، من سنين ما شفناش خالتكم ولا

نعرف أخبارها إلا كل كام سنة ولما يزورنا واحد من القرايب، في الصباح تسافر ماجدة، وتعود بعد يومين والمصاريف تتدبر، أما النقوط فلا داعي لها، خالتكم عارفه حالنا، ومقدره الظروف، وكفاية هنشاركهم فرحتهم.

اعتاد أمي أن تصحبنا إلى هناك، لحظة أن تتشاجر مع زوجها، تسرع إلى محطة القطار، وقد حملت صرة من القماش، بداخلها ملابسنا، وما يلزمنا من ضروريات ثم تطير بنا إلى كفر الغلابة.

في الصباح يصحبنا أولاد خالتنا إلى المقاتة، حيث غيط البطيخ والخيار والشهد، نقضي طوال النهار بداخل عشة بالحقل، أعدت خصيصا للغداء والراحة وقت القيلولة، وللاختباء أيضا إذا شعرنا بخطر الحيوانات المتوحشة كالذئاب وغيرها، كما نستظل بها من أشعة الشمس الحارقة وقت الصيف، وبين الحين والآخر، نمر على الغيط، نجمع البطيخ والخيار ونعود إلى العش نأكل حتى الشبع، لانخشى سوى الذئاب، وخصوصا إذا حل الغروب، لحظتها نركض عائدين إلى الدار، وفي الغالب نعتلي ظهور الحمير، لنسرع في العودة قبل أن يزحف الليل ويفرد رداءه على الحقول المخضرة، فتختفي معالم الجمال، وأحيانا أخرى نجلس على شاطيء الترعة، وقت الظهيرة، نشكل من عجينة الطين عريس وعروس، وخاصة لحظة أن يصاحبني رمزي، تجذبني وسامته وذكاؤه الحاد، نبقى ساعات، نلهو بهذه الدمى، ونأكل الهريسة حيث قمنا بإعدادها من فتافيت الخبز (المرحرح) والجبن القديم، نتسامر لوقت طويل، بينما تهتز من حولنا عيدان الذرة والبرسيم المخضرة، وكأنها تنتشي لوجودنا وتزداد رونقا ونضارة، يفصح لي

عن رغبته، أن يصبح ضابطا بالجيش، يحارب مع زملائه من الجنود لتحرير أرض سيناء الغالية، بل وكل شبر من أرض الوطن، دنسته أيادى المحتل الغاصب:

– لك الحق يا عزيزى، ونقتل العفريت الذى يخيفقنا ليلا.

يضحك وهو يطوقنى بذراعيه.

– لا تخافى، الله معنا، ولا تنسى أننى معك، ولن أتخلى عنك طوال حياتى.

عندما يحل الغروب، نعود إلى الدار متشابكى الأيدى. طوال الطريق يحكى عن العفريت الذى اختبأ بداخل قلتنا الفخار، وحال بينها وبين دخول الماء وقت الظهيرة، لحظة أن حاول والده أن يملأها من الترعة فى البداية أحس بصوت بقللة الماء فى حلقها، واعتقد أنها امتلأت، ولأنه كان يشعر بالعطش، رفعها لفيه، ليرتوى، فوجيء بفراغ الآنية.

تسرب الخوف إلى نفسى بينما راح رمزى يضحك ويقول:

– لا أخاف العفاريت مثل أبى ولا الجان.

* * *

تقع دار خالتى فى ذقاق بالكفر، بنيت بالطوب النيء، لم يتغير فيها سوى الواجهة والمدخل، حيث طليت جدرانه بالألوان الفاقعة، وزينت ببعض الرسومات لزوم العرس، سرب من البط والأوزاصطحبنى للطريق، وقت أن مالت الشمس للمغيب، وقد استمتعت بالسباحة طويلا فى الترعة الكائنة خلف الدار والمطلة على الحقول والأشجار.

ساد صمت بينما أسير ببطء بجوار الطيور، مرت صورته بخيالي؛ يبدو أن رمزى صار شابا وسيما، تقلقنى القطيعة التى حدثت بيننا، ولم تعد الأخبار تصلنا إلا عبر سطور رسالة، ربما انشغل بفتاة أعجبته وتلازمه كظله، ونسى وعوده لى، فى القرى يوجد الكثير من الفتيات، ينافسن فى جمالهن القمر، أفقت على صوت خالتى، جاءت مهرولة، بجلبابها الأسود الطويل ووجهها الأبيض المستدير، وقد لسعته حمرة الشمس، من كثرة عملها مع زوجها فى الحقل، تدلت طرحتها حتى لامست الأرض.

قالت وهى تضمنى لصدرها:

— بنت اختى الغالية، يا ألف أهلا وسهلا.

سألتها بينما أشير إلى الطيور:

— كل الطيور للعروس.

فى الحال التف حولنا العشرات من الأولاد والبنات

قالت وهى تقبلني:

— ولك يا عين خالتك.

التفت يمينا وشمالا وفى كل اتجاه، وسألتني:

— كيف حال أمك الغالية وشريف وصفية والأولاد؟

— كلهم بخير، تعتذر أمى عن الحضورلانشغالها برعاية أخوىَّ، وإعداد متطلبات المدرسة.

— وانت يا حبيبة خالتك ؟

– حصلت على الثانوية، والتحقت بالجامعة.

ضمتنى لصدرها بحنان وهى تقول:

– يا ألف نهار أبيض.

* * *

حاولت أن أجد لى مكانا وسط الدار، حيث ازدحمت بالقرويات من الأقارب والمعارف من أهل الكفروالكفور المجاورة، البعض اندمج فى الغناء والرقص، بينما الآخر انشغل بطهى الطعام والخبيز أمام الفرن، الكائن فى إحدى القاعات، ألقيت نظرة فاحصة من حولى، علِّى ألمح رمزى، لم أجد سوى زوج خالتى، بجلبابه الأزرق وطاقيته الصوف، افترش ركنا بقاعة الزوار وراح يدخن الجوزة مع بعض الرجال، ويتحدثون فى موضوعات مختلف، فى الحال صعدت درجات السلم حيث الطابق الثانى بصحبة بنات خالتى وبعض القرويات وهن يرددن الأغانى المبهجة والفرحة تملأ الوجوه..

– بنت خالتنا، من البندر، الأبلة ماجدة، معنا يا حلاوة ياولاد.

حاولت جاهدة أن أخطو فوق عيدان القش والحطب حيث رصت على شكل أكوام، لتلقيم الفرن منها أثناء الخبيز، جزبتنى خالتى من يدى لأصافح العروس، حيث تجلس فى المندرة، ترتدى قميصا، يكاد يلامس الأرض، بينما البلانة تجلس قبالتها، استعدادا لتزينها قبل الزفاف، وبجوارها وعاء امتلأ بعجينة الحناء.

راحت الماشطة تمسح وجه محروسة بحفنة من تراب الفرن الهش، تأملتها بدهشة، حوَّلت نظرها لى ثم قالت:

– الليلة الحناء عقبال ليلتك.

أجابت خالتى على الفور:

– إن شاء الله وتكون من نصيبنا.

قلت بابتسامة وخجل:

– بعد التخرج من الجامعة.

قالت البلانة بلا مبالاة:

– لاتعليم ولايحزنون، حلم البنت عريسها، يضلل عليها ويحميها.

هزنى صوت ليس بغريب علىَّ إلا أنه ازداد خشونة:

– الشاى يا أم رمزى للرجال.

هرولت خالتى إلى السلم وسأله فى نشوة:

– تعالى يا ضناى، سلم على بنت خالتك، عروسة كالبدر.

اضطربت أطرافى، بينما أنظر من سور السطوح المطل على الترعة حيث أشجار الجميز والكافور والحقول الخضراء الممتدة، كم شهدت تلك الأرض لقاءاتنا ونحن صغار.

صعد بخطوات وئيدة وهو يتطلع إلى أعلى، مرتديا جلبابه البني تاركا رأسه عارية، يكسوها شعره الكثيف المنسق .

لم أصدق عينى لحظة أن لمحته، خلت أننى أمام أحد أبطال السينما، غادرت خالتى السطوح، لتباشر طلبات الضيوف، تسمرت فى مكانى، أتأمله بشوق، اقترب، اهتزت معه أطرافى وشعرت

obeikan.com

بـبرودة تسـرى فـى أوصـالى، مـد يـده لتصافـح يـدى بحـرارة وقـال:

— أهلا يا ماجدة الكفر نور.

نظرت للخضرة الممتدة أمامنا ثم واصلت:

— هل تذكر أيام الطفولة، جلسـنا هنا فى نفس المكان وأكلنا الهريسـة.

جذبنى من يدى حيث استسلمت على الفور ليده وقال:

— الجبن القديم المهروس والمرحرح.

— نعم لم أنسَ طوال سنوات البعاد، رغم انشغالى فى الجامعة.

— آه لـو تعرفـى مـاذا فعـل غيابـك بـى، لـولا انشـغالى بالدراسـة فـى الجامعـة والأرض لكـدت أجـن.

سألت بسخرية:

— وبنات الجامعة؟

— واحدة فقط، ملكت قلبى وشغلت فكرى، ولكن..

سألته بلهفة:

— ولكن ماذا، سنوات مضت لم تفكر فى زيارتنا ولو مرة واحدة؟

— انشغلت بالدراسة والأرض.

اقترب، لمس يدى ثم قال:

— لاتقلقى، أنت دائما فى القلب والفكر.

اسـتأذن بالانصـراف لحظـة أن نـادى عليـه بعـض الشـباب وقبـل

أن يهبط أول درجة للسلم نظر لى وقال بحنان:

- كلها سنة واحصل على بكالوريوس التجارة وتنتهى مشاكلنا، لحظتها لن يتمكن أحد من التفرقة بيننا، ربنا يستر وتعدى الأزمة على خير.

سألته بخوف:

ماذا فى الأمر؟

- يبدو أن الحرب مع العدو على الأبواب وستكون هذه المرة ساخنة، أقسم الرئيس أن يدك قلاعهم ويضربهم الضربة القاضية، كما ناشد كل الأمة العربية أن تتضافر وتلتف حول قضيتها المصيرية.

اقترب شاب من رمزى وقد حضر لاستدعائه:

- صباح الأمس، حاولت بعض القطع البحرية الإسرائيلية التسلل إلى مدخل قناة السويس، من جنوب بور توفيق، أطلقت عليها مدافعنا قنابل تحذير، لكنها لم تتوقف، واستمرت فى تقدمها، وكان لابد أن تطلق مدافعنا النار عليها فى المليان، وما كادت تصيبها مدافعنا، حتى فتحت مدافع العدو نيرانها على بور توفيق، لتصيب البيوت والسكان الآمنين.

اتجه رمزى وصاحبه إلى حيث الأصدقاء وبعض الرجال المنتظرين.

- بدأت بالفعل حالة الطوارىء فى الجامعة، حيث أعدت المخابىء وأجولة الرمل، وضعت كسواتر أمام المناطق الحيوية، والمنشآت، كما تم طلاء الزجاج باللون الأزرق.

obeikan.com

أضاف أحدهم بقلق:

- فى الكفر وفى الكفور المجاورة، وفى العزب والنجوع أيضا، تم استدعاء الكثير من الشباب ممن سبق تجنيدهم وغيرهم للخدمة العسكرية.

تدخل رمزى بخوف:

- يبدو أن الدور على عريس محروسة، ربنا يجيب العواقب سليمة.

ساد صمت، تأملت ما حولي؛ نفس المكان ما زال فيه شيء من الماضي الجميل، ولا أدرى ما سر اشتياقى الجارف لرمزى، منذ وقعت عينى عليه، ربما شعورى بالأمان، لحظة تواجدى معه، وإحساسى بأنه الفتى الجسور الذى فى إمكانه انتشالى من الضياع، وحمايتى من ذئب الليل الرهيب، الذى يكدر حياتى.

* * *

كان لوجودى بين الأقارب أثره فى تخفيف الأزمة على نفسى، حيث قضيت بضعة أيام مثيرة بصحبة رمزى وأبناء خالتى فى أحضان الطبيعة الساحرة، فقط حدث ذات مساء ما عكر صفو النهر الجارف، وأدركت أننى لن أتمكن من الهروب، وستظل مخالب الذئب تطاردنى أينما ذهبت..

فى عشية هذه الليلة، والتى تسبق ليلة الدخلة، شعرت بالإرهاق الشديد، ومن ثم توجهت إلى قاعة بالدور العلوى، لأخلد للنوم، دار شريط الذكريات كالنسمة، تذكرنى بالساعات الجميلة

حيث السمر واللهواللذيذ مع رمزى فى سنوات الطفولة والصبا؛ لحظة أن يمسك بضفيرتى ويجذبنى بحنان كفارس يسحب مهرته من ذيلها، وفى الحال يلقى بى فى حضنه الدافئ ويقبلنى بشوق جارف، تتلاشى معه تلال الضباب المتراكمة.

يا لها من ذكريات جميلة، ليتها تعود.

ألقيت بجسدى المتعب فوق السرير، ذى الأعمدة النحاسية، ولم يكن من السهل الصعود حيث يرتفع عن الأرض بمتر ونصف على الأقل، على الفور جذب النوم عينى، سمعت محروسة تسأل أخاها الصغير أن يفرد على جسدى بطانية خفيفة أو كوفرتة.

لأول مرة فى حياتى أشعر بالراحة فى النوم، اللهم رؤية مخيفة أفزعتنى آخر الليل..

بعض الفلاحين تجمعوا، فى باحة دار خالتى، انشغلوا فى ذبح بقرة صغيرة أو عنزة، لم أتبين ملامحها تماما، لم أر الدم، فى الحال غادرت المكان فى حالة هلع شديد، متجهة إلى قاعة الفرن وإذا بى ألمح ثعبانا ضخما يغادر الشجرة العجوز، الكائنة فى الخلاء، حيث التف حولها، لمحته يغادر فروع الشجرة ويتجه نحو باب الدار، ويلاحقنى، صرخت، فى الحال اختفى فى طيات الأشياء المهملة والمتراكمة فى داخل القاعة المعتمة، نظرت حولى، لمحت محروسة تقف حائرة، مضطربة، يعتريها الخوف، فى ركن ما من الدار، سألتها عن مكان الثعبان، حاولت أن تنطق، تلعثم لسانها، ثم سارت ببطء متجهة إلى قاعة الفرن المعتمة.

* * *

فـى الصبـاح الباكـر، نهضـت بتكاسـل، دوار ألم برأسـى، كأن كابوسـا يخنقـني يسـود المـكان مـن حـولى هـدوء غـير عـادى، فالـكل ذهـب لقضـاء حوائـج العـرس، دقائـق واسـتدعتنى خالتـى لتنـاول الأفطـار، ثـم سـألتنى إن كنـت أرغـب فـى شـغل وقـت فراغـى، وافقـت علـى الفـور، ناولتنـى وعـاء بـه بعـض الأرز لتنقيتـه، واتجهـت إلى السـطح لإحضـار حميـة الفـرن مـن أعـواد الحطـب الجافـة وقـش الأرز وقطـع مـن روث البهائـم الجافـة، لتعـد طواجـن مـن الأرز المعمـر، والخضـار المحشـو باللحـم .

لعبـت برأسـى الظنـون بينمـا أفـرز حبـات الأرز وأنقـى منهـا الحصـى والدنيبـة، وقـد تناثـر بعضـه رغمـا عنـى، خلتـه وسـط حبـات الأرز، تمـزق جسـده إربـا، إثـر خروجـه خلسـة مـن بـين قطـع الأثـاث القديمـة، وغـدا فـى حجـم حبـات الحصـى السـوداء، لحظتهـا نهضـت لأهرسـه بقدمـى ليختفـى مـن الوجـود إلى الأبـد، ذلـك الـذى يرغـب فى تحطيمـى، وهمسـت فـى غيـظ:

— هـا أنـت بـين يـدى المـوت بـل والعـدم، أيهـا الثعبـان الغـادر، لـن تتمكـن مـن النيـل منـى مـرة أخـرى، لأنـك ضعيـف وحقـير، لاتعـرف سـوى الظـلام، تمـارس فيـه خططـك الدنيئـة، لـن أدعـك تحاصرنـى مـرة أخـرى، وتغـرس سمومـك فـى جسـدى، وسـأدفن أشـلاءك تلـك السـوداء فـى بطـن الطـين الجـاف، هنـاك فـى الخـلاء، بعيـدا عـن أيـة قطـرة مـاء، كـى لاتطـرح شـوكا، يـا ذا النـاب الفـارد أشـرعة الرعـب، يـا مـن تزحـف كالطوفـان، تقتلـع الأخضـر واليابـس، ياأفعـى تتلـوى علـى ثوبـى الأبيـض، وتـرش سمومـا ملعونـة، ولتعلـم لـن أتعـرى مـن ثوبـى، لـن تسـلب منـى

روحى، لن يتحلل جسدى، لن يتألم، لن أصرخ، لن أبكى، سأصب بغيظ أشجانى لتسحق أشلاءك، تلك السوداء.

شعرت بالإعياء، اقتربت من المرآة المتربة، والتى تتوسط ضرف الصوان، أزحت ما عليها من تراب، تأملت وجهى، تملكنى القلق، لحظة أن لمحت الإصفرار يكسوه، وبعض التشققات فى شفتىَّ، بينما أجزاء حساسة من جسدى يعتريها الدفء، وأشعر براحة تعقب النشوة.

وبينما أتحسس ثديى حيث انتابه بعض الألم، إذا بكفين ثقيلتين، تهبطان على كتفى، وتستقران كطائر شريد، وصل لبر الأمان، لمحته فى المرآة، وجه رمزى يحتوينى بابتسامته الساحرة، قال بينما يحتضنى بحنان:

— هذا الوجه البيضاوى، ذو الملامح الجذابة، والبشرة الخمرية، والعيون العسلية، ذات الجفون المكتحلة، والشعر الكستنائى الطويل، والجسد المشوق كالغزال، والأنوثة الفائرة، إلى متى ساظل كالطائر الشريد.

أحست بشيء من الأمان و زال الخوف قليلا، وعلى الفور التفت ورائي بينما أحاول الفكاك، وفى أعماقى رغبة جارفة، فى أن ألقى بنفسى فى صدره، ليحتوى كل جسدى، ويغمرنى بدفء اللقاء ولذة النشوة، فقط خشيت أعين الرقباء، وخصوصا أن الدار بدأت تزدحم بالجيران والأقارب وأهل العريس من فلاحى الكفر.

سألنى وهو يهم بتقبيلي:

— فيما تفكرين ولماذا كل هذا الشجن؟

فى لمح البرق، ابتعدت وأسرعت بمغادرة الباب، متجهة إلى السطوح، وقد أمسكت بوعاء الأرز لحظة شعورى بوقع أقدام على السلم.

قالت جمالات إبنة خالتى الصغيرة:

— نقيت الرز يا أبلة ماجدة؟

ناولتها الوعاء:

— من بدرى يا عزيزتى.

هبطت معها درجات السلم، تاركة رمزى يعانى وحدته القاسية وحرمانه من لقائنا المثير، تدفقت السعادة كسيل جارف وغمرتنى وخاصة لحظة اندماجى مع القرويات فى الرقص والغناء وطهو الطعام مع خالتى فى الفرن، كما قمت بجمع النقوط، مما أدخل السرور فى نفس رمزى وقال منتشيا:

— أحمد الله لأنك تعودت على الحياة هنا.

أجبته فى نشوة:

— لم أحس بالأمان والسعادة طوال حياتى بقدر ما أشعر بها هنا الآن واتمنى ألا أغادر الكفر.

* * *

الأيام الجميلة دائما عمرها قصير، فقد حدث ما جعل الأرض تميد من تحت قدمى، وامتلأت نفسى بالرعب، لدرجة أن لحظات السعادة التى عشتها هنا بدأت تخفت بالتدريج، ويختفى معها بريقها، تاركة مكانها أسى ودموع، فى ليلة الدخلة، عندما

حـان وقـت الزفـاف، ثـم تنتقـل العـروس لتعيـش فـى دار عريسـها، حيـث تبعـد عـن دار عائلتهـا بخطـوات قليلـة، وقـد سـبقها إلى هنـاك الجهـاز، وكل متطلباتهـا، ولم يبـق سـوى، حلـة الاتفـاق، تعدهـا أم العـروس لتحمـل معهـا، وتمتلـىء بالمأكـولات الشـهية، والمغذيـة وغالبـا تكـون طيـورا، وتـؤكل بعـد مـا يقـوم العريـس بفـض بـكارة العـروس، وبالتـالى يثبـت رجولتـه أمـام الحشـود المتكدسـة مـن أهـل العروسـين، وغيرهـم مـن الفلاحـين، وقـد تجمعـوا علـى طـول الطريـق الكائـن بـه دار العريـس؛ بـل وانتشـروا كالنحـل فـوق أسـطح الـدور لـيروا عـن قـرب بقـع الـدم.. شـرف العـروس، منقوشـا علـى قطعـة مـن البفتـة، تنشـر علـى حبـل معلـق أمـام منـدرة العروسـين، ليراهـا الجميـع وخصوصـا أهـل العريـس مـن الرجـال، إذا لاقـدر الله ولم يظهـر الـدم، يحـدث مـا لايحمـد عقبـاه، وربمـا ينقلـب الفـرح إلى مـأتم.

قبـل العشـاء وصلـت العـروس لدارعريسـها، تحيطهـا زفـة مـن الأغانـى والزغاريـد والطبـول؛ بعـض البنـات رحـن ينشـدن..

يا مهلبية ياه

أنا خدت الواد ده غيه ياه

من عوجة الطاقية ياه

أنا خدت عريسنا غيه ياه

على بصة عينه لىَّ ياه

بينما الشباب ينشدون، بعض الأغانى مع طبول الزفة والرقص..

سلام للعروسة

سلام للعريس

نورتوا علينا الفرح

والقلب بيكوا انشرح

والورد والياسمين

فى الكوشة للعروسين

سلام للعروسة

سلام للعريس

دقائق ودخلت العروس مخدعها بصحبة عريسها؛ شاب مزارع، ارتسمت على وجهه ملامح الطيبة، بدأ فى تأدية مهمته، لينفض المولد وينعم بحياة آمنة مع عروسه، وفى ركن قريب وقف زوج خالتى، بصحبة بعض الرجال المنتظرين فوق سطح الدار، وأمام مندرة العروسين علق حبل، راح يهتز كأنما أصابته رعشة من شدة الخوف، ارتسم الرعب على وجه زوج خالتى، أبو العروس، بينما جسده يرتعد كأنما هبت عليه ريح عاصف، حاول إخفاء مشاعره بالحديث مع الرجال المتأهبين للقتال، حيث حمل كل منهم بندقية شهر فوهتها فى اتجاه مخدع العروسين، لمحت خالتى تبكى فى ركن ما وبعض النسوة يهدئنها :

قالت واحدة وهى تربت على كتفها:

— الفراق صعب يا ام رمزى، وخصوصا لما تكون العروس بكرية وأول فرحتكم.

واصل البعض بصوت هامس:

– ربنا يعدى الليلة على خير، إما العرض أو لاسمح الله تفرغ الرصاصات فى حشاها.

شعرت بدوار وكاد يغمى علىَّ، لمحتنى خالتى، اقتربت فى الحال، أحاطتنى بذراعيها الضعيفتين بينما جسدها ينتفض رعبا..

– خير ان شا الله، بناتنا بخير.

طال الوقت، بدأ الرجال الواقفين على جبهة القتال، يشعرون بالقلق، بينما العرق، يتصبب من جبهة زوج خالتى، فى لحظة، هبط درجات السلم، وتحدث مع رمزى، وبعض الأقارب من الرجال، ثم صعد مرة أخرى، فعل ذلك أكثر من مرة بينما الخوف يعربد فى وجهه والقلق، سأل رجل من أقارب العريس بعنف:

– فين البلانة؟

أجابت خالتى على الفور:

– موجودة يا خويا، وهاشيع لها تيجى فى الحال.

فى لمح البرق حضرت المذكورة، ويبدو أنها كانت تنتظر فى الكواليس فى غمضة عين، أخرجت من حقيبتها لفافة من الشاش، واتجهت على الفور لمندرة العروسين بينما تقاوم الخوف والقلق الذى سيطرعليها سألها رجل من المسلحين بينما يغرس البندقية فى كتفها:

– شوفى شغلك يا ولية.

لحظات وانطلقت صرخات، هزت جدران الدار، بل وأخرجت الطيور من أعشاشها، وشردتها فى الفضاء.

ساد صمت لوقت قليل، خرجت بعده الماشطة، تحمل فى يدها قطعة من القماش الناصع البياض، طولها متر ونصف على الأقل، تلطخت ببقع كبيرة من الدم الشديد الحمرة، علقتها فى الحال على الحبل، وعلى الفور انطلقت الزغاريد، وخرجت الرصاصات من فوهة البنادق لتفرغ فى الهواء الطلق، وتزلزل الدار والدور المجاورة، كما أنشد بعض النسوة الأغانى بصوت عال، مع ضرب الكفوف بعضها لبعض، كأنها أصواتا للدفوف..

يا بلحة يا مقمعة.

شرفت عمامك الاربعة

جففت خالتى دموعها و نهض زوجها رافعا رأسه وهو يردد بانتشاء: الحمد لله والشكر لله.

سقطت مغشيا علىَّ بينما صورة محروسة تتراقص أمام عينى، والدم ينزف منها، وقد أغمى عليها هى الأخرى، ولم نسمع سوى صرخة واحدة قوية، ثم ساد صمت داخل المندرة.

أفقت على صوت خالتى، وهى تضمنى لصدرها و تسألنى أن أشرب ما فى الوعاء الفخار الذى تحمله، حيث امتلأ بسائل بنى اللون، وقد وقف أولادها الصغار، يتوسطهم رمزى وقد تبدل لونه، وبدى الخوف واضحا على وجهه، أمسك بزجاجة من ماء الكلونيا، وبقايا بصلة، وضعت على منضدة صغيرة تتوسط القاعة الكائنة بالدور الأرضى.

قالت سيدة من أقارب العريس:

– أنت غالية عند خالتك، تركت محروسة غرقانة فى دمها وجاءت للاطمئنان عليك.

أسندت رأسى بين كفى حيث كادت تنفجر من شدة الصداع وكتمت فى نفسى صرخة مدوية، ودت لو تنطلق.

دقائق وسحبت شربات إيشارب من درج الصوان ولفت رأسى بإحكام، أمسكت خالتى بالوعاء الفخار، وسألتنى ورأسى مسنودة على كتفها:

– اشربى يا ضنايا طاسة الخضة.

قالت سيدة أخرى، من اللواتى التففن حولنا:

– لاتخافى، خميرة وعسل أسود، فيها الشفاء بإذن الله.

حاول رمزى الاقتراب منى، ونثر بعض الكلونيا على وجهى، لم أقو على النظر إليه، أدرت وجهى للجهة الأخرى، وبدى سور السطوح المطل على الترعة حيث ذكريات طفولتنا الجميلة، كأنما غرست فيه الأشواك، وأصبحت أخشى الإقتراب منه.

سألت خالتى رمزى أن يصحبنى للدور العلوى لأنام مع بناتها، رفضت بشدة، وبقيت على نفس الطاولة الخشبية، إلى أن صاح ديك الصباح، لم يغمض لى جفن، فقط تظاهرت بالنوم، تجنبا للحديث مع رمزى، وبقيت على هذه الحال من الخوف والتوتر والقلق، إلى أن أذن الفجر، ومع أول خيط للنهار حملت حقيبتى وغادرت كفر الغلابة.

* * *

حاولت أن أنسى ماحدث فى الكفر، ولم أتكلم مع أمى تجنبا لآلامها، مما خفف الأزمة على نفسى، قبولى بجامعة القاهرة، حمدت الله فالحلم الذى شغل فكرى سنوات فى طريقه للنهوض، وبنفس فرحة، متعطشة للعلم، بدأت أتلقى المحاضرات، وأجيب بمهارة، مما جعلنى من أوائل الطالبات المتفوقات فى قسم الدراسات الاجتماعية، لدرجة أن بعض الأساتذة أشادوا بتفوقى وقدرتى على الإجابة المقنعة وإدارة الحوار، وطلبوا من سائر الطلبة الإقتداء بى وفى مقدمتهم الدكتورة حكمت أبوزيد، والدكتور أحمد الخشاب، ولعشقى للأدب، تقدمت لمسابقة أعلنت عنها جماعة (آتون) فى الشعر والقصة والمقال، وسوف توزع جوائزها فى المهرجان الثقافى الأول لكلية الآداب خلال الشهور القادمة، وبالفعل شاركت بمقال عن عميد الأدب العربي (طه حسين) مستعينة بقراءاتى لبعض أعماله منها «الأيام»، و«المعذبون فى الأرض»، بالإضافة لاطلاعى على فن كتابة المقال لبعض المفكرين.

* * *

عصر أحد الأيام، بينما أغادر قاعة المكتبة متوجهة إلى مدرج المحاضرات فى الفترة المسائية، سمعت صوتا ليس بغريب علىَّ، قال هامسا:

— وحشتينى يا ماجدة.

— اندهشت لحظة رؤيتى له، وانتابنى الخوف وخاصة وقد بدا التعب والإرهاق على وجهه، سألته بلهفة:

— ماذا بك يا رمزى، هل أصابك مكروه.

أجاب بينما يقترب مني:

– انشغلت عليك كثيرا، جئت أكثر من مرة ولم أجدك.

– ربما كنت فى قاعة المكتبة أو ندوة جماعة آتون الأدبية.

– بعدك عنى يقتلنى، ولا أستطيع وصف مشاعرى.

همست لنفسي:

كم أحتاج إليك، لتمنحنى نسمة هواء، كى لا يخنقنى التراب الذى يحاصرنى، أتمنى لو تأخذنى بعيدا، ويختفى إلى الأبد ذلك الشبح المخيف، ويتحرر جسدى من ألاعيبه البهلوانية للنيل منى.

عدنا لقاعة المكتبة ودار الحديث:

– حصلت على البكالوريوس بتفوق، وسأبحث عن وظيفة، وتنتهى متاعبنا.

ترددت فى الإجابة ثم:

– لتعلم أننى ما زلت مريضة و...

لاحقنى قبل أن أواصل..

– كل ما أخشاه أن الحرب على الأبواب، وحتما سأشارك جنودنا البواسل لتحرير أرضنا من كل غاصب.

– فعلا يا رمزى، المجلس الأعلى للمقاومة الشعبية، أصدر أول بيان إلى الشعب منذ أيام جاء فيه:

إن القوات المسلحة الرابضة فى خط النار، على استعداد لأن

تسحق، وإلى الأبد، قوى العدوان الإسرائيلى، واستجابة لهذه الإرادة الجماهيرية وتحقيقا للتعبئة الشعبية لمواجهة الاحتمالات؛ تقرر تنظيم المقاومة للمساهمة المباشرة فى المجهود الحربى، كما دعا المجلس جميع مواطنى الشعب المصرى من سن ١١ سنة حتى ٥٠ سنة الراغبين فى التطوع التوجه إلى مراكز التسجيل.

واصل رمزى بقلق:

— التعبئة العامة بدأت فى الجبهات العسكرية والسياسية بل والشعبية أيضا، وتطوع كثير من شباب الكفر، وأعتقد أن المعركة القادمة ستكون شرسة.

لاحقته بخوف:

— فى الكلية قامت جماعة آتون الثقافية بحث الطلبة بالتبرع بالدم، والمشاركة فى التعبئة الشعبية، كما ناشدت الطالبات بسرعة التوجه إلى مراكز الإسعاف والتمريض للحصول على دورات، لمساعدة الجرحى وقت اللزوم، كما علقت لافتات فى عدة أركان من المبنى بهذا الخصوص.

قال رمزى بحزن بينما أتظاهر بالقراءة:

— التقينا بعد سنوات من الفراق فى عرس محروسة، لحظتها رقصت الدنيا من حولى، واعتقدت أن الزمن ابتسم لنا، وستفتح لنا الحياة صدرها، وتحتضنا بحنان، وللأسف يبدو أن الأمل غدا بعيدا، حوصر بالضباب.

أجبته بقلق فى محاولة للخروج:

- هـذا الموضـوع سـابق لأوانـه، المشـوار أمامـى طويـل، سـنوات الدراسـة الباقيـة، ومسـئوليتى تجـاه أخـوىَّ، بالإضافـة إلى أننـى فـى حاجـة ماسـة للعـلاج النفسـى (قلـت هـذا وبداخلـى عاطفـة متأججـة نحـوه، أتمنـى لـو يحتضنـى بقـوة، ويمتـص دفء صـدره مـا بـى مـن ألم، لكنـه الخـوف مـن مصـيرى معـه، ومـا زالـت صرخـات محروسـة ومـا حـدث لهـا ليلـة دخلتهـا تؤلمنـى).

قال بتحد وإصرار:

- كل هـذا لايهمنـى، فـى إمكانـى الإنتظـار لحـين تخرجـك، وأيضـا بعـد أن يتـم الشـفاء، وسـوف أتحمـل أيـة مسـئولية بشـرط الإرتبـاط مبدئيـا، وأعتقـد أن حالتـك الصحيـة مطمئنـة.

سألته فى محاولة للهروب:

- كيف حال خالتى والأولاد والعروس.؟

أجاب بأسى:

- زوج محروسـة تم اسـتدعاؤه للجيـش ولم يمـض علـى العـرس سـوى أيـام قليلـة، كمـا تم اسـتدعاء الكثـير مـن شـباب الكفـر، تلبيـة لنـداء الوطـن.

- مسكينة محروسة، لم تشعر بالفرح كالأخريات.

لاحقنى بحزن:

- للأسـف بـدت عليهـا أعـراض الانهيـار العصبـى، منـذ أن غـادر عريسـها الكفـر، ولا أحـد يعلـم عنـه شـيئا، لم يتصـل ولم نسـمع عنـه أيـة أخبـار، علمـا بـأن بعـض الذيـن غـادروا مثلـه يرسـلون

لأقاربهم للاطمئنان.

اغرورقت عيناى بالدموع وسألته:

– حاول البحث عنه ربما تجد خيطا يوصلك لمكانه.

– يبدو أنك تحاولين الهرب من حديثنا المصيري؟

ألقيت بجسدى على بعض الحشائش بحديقة الجامعة، وفعل مثلى، ثم أجبت:

– أتمنى أن أصبح شريكة لحياتك، فكم أحتاج إليك، لرجل أحبه، يحمينى ويدفع عنى الأذى.

ساد صمت، استعدت ذكريات الليلة الرهيبة، حيث نزفت محروسة، بالإضافة إلى الكابوس الكاتم أنفاسى سنوات، ولا أعرف مخرجا منه سألنى بدهشة:

– ماذا دهاك، إلى أين ذهب فكرك؟

– دعنا من الحديث فى هذا الموضوع الآن، هناك ما هو أهم، وينبغى ألا نسبق الأحداث.

– علينا أن نخطط لمستقبلنا.

– على أساس، أنه غير موجود.

– موجود.

– ما هو؟

– حبنا.

قلت بانفعال:

أرجوك أريد الخروج من أزمتى النفسية أولا:

– الزواج هو الحل.

نهضت على الفور لألحق بالمحاضرة.

لحق بى ثم قال:

– دعينى أوصلك لباب المدرج؟

– لا ينبغى، أخشى الأقاويل من قبل الزملاء.

ضغط على يدى وواصل:

فكرى جيدا فيما قلت..لمصلحتنا.

أجبته بينما أنهض وأنفض ما علق من حشائش على ملابسى.

– ربما فى اللقاء القادم.

* * *

شيء مقدس تفعله أمى كل عام، لحظة أن تهل تباشير مولد أم الحنان، تقوم بطهو كمية من الفول النابت أو اللحم إن توفرت نقوده، ويتم تعبئته بمساعدة بعض الجيران، ما يقرب من خمسين رغيفا على الأقل، توزع على فقراء زقاق بنى أيوب، فى الليلة الكبيرة، ناسية أننا أفقر الفقراء، أحيانا تستدين لهذا الغرض .

قالت بصوت عال بينما تشير إلى الأرغفة المعبأة:

obeikan.com

– انهضى يا ماجدة مع أختك، خذى بعض الطعام ووزعيه على الجيران، ولا تنسى سيدة العرجاء، مسكينة تربى طفلة يتيمة، أعطها جلبابى الأسود من الدولاب، شردت قليلاً ثم همست:

– سيدة العرجاء، ليست فى حاجة إلى طعام أو كساء، الكل يعطف عليها من أجل إبنة إبنتها، وخاصة عندما التحقت بالمدرسة ولا تكتفى بل تطلب دائما المزيد، تقضى طول النهار وجزءا من الليل على ناصية الحارة، تفترش الأرض بجوار أكوام القمامة، تحرك يدها اليمنى، كأنها مصابة بشلل هزاز، وأحيانا تظل بجوار مقام أم اليتامى على باب الضريح، تتلقى مساعدات أهل الخير.

فى البداية رثيت لحالها، واصطحبتها إلى الشئون الاجتماعية بالحىِّ أيام قليلة مضت، وتقرر لها مساعدة شهرية، ولترحم نفسها من ذل السؤال، بالطبع لم تكتف وراحت تواصل الشحاذة بحجة قلة دخلها، ولا يكفى طعام الطفلة اليتيمة.

قلت لأمى بضيق:

– لاداعى للملابس ويكفى منحها الطعام، ولا تنسى حاجتك للكساء، دائما يحدث الشجار بينك وبين الوالد بسبب مصروف البيت الضئيل، وإهماله لك، منذ زواجكما لم يفكر فى شراء جلباب لك أو حتى إيشارب.

أجابت بأسى:

– حرام عليك، الولية مصابة بنزلة برد، والشتاء على الأبواب.

– لاترحم نفسها من الجلوس على ناصية حارة النبوية، والمطر نازل على رأسها، وتسأل بوقاحة الرائح والقادم، ورغم كثرة ما تجمعه من نقود ما زالت تسير حافية، لايستر جسدها سوى جلباب أسود ذى رقع بالية، أين تخفى ما تجمعه من نقود يوميا؟

حتى حجرتها بالبدروم، لاتعود إليها إلا لتأكل ثم تعاود الشحاذة، مرض يسرى فى جسدها، ولا من دواء، كم أشعر بالندم لمساعدتها، عانيت كثيرا فى استخراج أوراق تثبت هويتها، توجهت لدار المحفوظات بالقلعة، للسؤال عن شهادة ميلادها ونصحونى بالتوجه للسجل المدنى بالفيوم، مسقط رأسها.

– اعملى الخير يا بنتى وارميه فى البحر.

أضافت صفية بحزن:

– لا تلوميها وكفى ما تعانيه، تعيش كالأحياء الموتى، فى حجرة معتمة تحت سطح الأرض، رديئة التهوية، تملؤها الرطوبة ولا تدخلها الشمس. واصلت أمى بضيق:

– وتقاسى من طفح المجارى، تنزح الميه بإيدها السليمة طول النهار، لغاية لما تقع من طولها.

– لا أكرهها، أتمنى لو تستغل ما تجمعه من نقود، لتحسين حالها، تعيش على الأقل فى حجرة، لتشعر بآدميتها، تجمع يوميا ما لايقل عن جنيه وأحيانا أكثر، لمحتها عصر أحد الأيام، تمد يدها لأحد ركاب عربة ملاكى، ناولها جنيها، لحظة أن رأتنى أخفته فى جيب سحرى بجلبابها، وكأن

شيئا لم يكن، ثم راحت تنتظر غيره.

قالت أمى وهى تناولنى الأرغفة:

- ربنا يتولاها برحمته، ولا تنسى أبلتك فردوس، وأم أحمد وأم صابر وجارتها الجديدة، فتحية، وجارتنا وردة وابنة أختها نجاة، وأم مينا، ولا ننساها علشان مسيحية، كلنا اخوات، والنبى وصى على سابع جار.

سألتها بدهشة:

- هل نسيت ما فعلته فينا فردوس هذه، بددت مجهود جدى، الله يرحمه، ومسحت بالماء ما على التحويطة من تعاويذ، وآيات قرآنية لطرد الجان والشياطين، والمصيبة، سكننا الخوف ولم يفارقنا حتى اليوم.

اصطحبتنا أمى لباب الخروج ثم قالت:

- المسامح كريم، جدك يعيش معنا بروحه، وخصوصا تلك الأيام المباركة، نفذى ما طلبته، يمكن ربنا يشفيك، وعلى أى حال كلها ساعات قليلة، ويأتينا الشيخ أحمد وتحل بركته، وعلى يديه سيتم المراد.

اضطربت وقلت مستنفرة:

- ما حكاية هذا الشيخ؟

- لاأريد لك سوى الخير.

ربتت على كتفى وأضافت:

– لا تنسى توزيع باقى الأرغفة على باب أم اليتامى، والدعوات المباركة، ومعك صفية، وياريت تزورى مع أختك الضريح ولا تنسوا قراءة الفاتحة قدام المقام والدعوات الطيبة.

* * *

أصابتنى الدهشة، لحظة أن حاولنا فتح طريق، لإزاحة بعض الكتل البشرية، جاءوا للمشاركة فى مولد أم الحنان، الزحام رهيب، رجال وسيدات وشيوخ وأطفال، يدفع كل منهم الآخر بهمجية، بحثا عن مكان ما بينما صيحات الدراويش، تنطلق داخل حلقات الذكر، وجوه تلون جلدها من لسعة الشمس فى الحقول، فلاحون بكثرة وآخرون من صعيد مصر، وغيرهم، جاءوا من أقاصى البلاد، حاملين أمتعتهم من خيام ومتطلبات لزوم الإعاشة طوال أيام المولد، والبعض لايعود لبلده مباشرة عقب انتهاء المولد، وغالبا ما يواصل فى مولد آخر، يأكلون ويشربون داخل خيامهم، ويسمعون المديح أيضا ويذكرون.

قالت صفية بينما نقترب من عتبة المقام:

– لماذا لانفعل مثلهم، كل شيء فى حب الله نراه هنا.

– كان جدنا الله يرحمه، يقول:

– كلنا خدام أهل البيت، ويجد متعة عندما يرى الناس يذكرون وينشدون المواويل، يساعدهم فى إقامة الخيام فى الحارات والأذقة وفى أحواش البيوت القريبة من الضريح، كم يشعرون بالسعادة، لحظة أن يفترشوا الأرض، وينام فوق التراب، وتصل فرحتهم لقمتها عندما تدور أكواب الشاى

على الدراويش وزوار أهل البيت، وتتصاعد كركرة الجوزة، وهى تمر على كل منهم ليسحب نفسا عميقا.

شدنا صوت عازف ربابة، وهزنا من الأعماق:

أمانة، أمانة

يا زاير المقام.

مقام ستنا الجليلة

فاطمة أم الحنان

توقفنا لحظات، فتحتُ الحقيبة القماش لتوزيع ما تبقى من أرغفة، بينما العشرات من المارة والدروايش، التفوا حولنا وكادوا يمزقون الحقيبة.

راحت صفية تدفعهم بيديها بينما تقول:

— ابعديهم عنا يا ام اليتامى، وحياة جدى الشيخ الصاوى، تعرفيه جيدا، هو من مريديك.

لحظات ولم نجد بحوزتنا الحقيبة، إبتعدنا، وقفنا فى ركن هاديء بعض الشيء، سألتنى أختي:

— لماذا سميت السيدة فاطمة النبوية بأم اليتامى؟

— جدى رحمة الله عليه، أفاد بأن هذا الاسم يرجع لأنها محبة لله وللوطن، شاركت فى حرب كربلاء بالعراق، ثم جاءت إلى مصر وبصحبتها بعض الأيتام من البنين والبنات، وقضت ما بقى من عمرها فى تربيتهم ورعايتهم.

obeikan.com

فكرنا فى العودة للبيت تجنبا لقلق أمى، جذبنا صوت عم صابر، صديق جدى يلقى نشيدا هز قلوب المريدين..

يا زارع الود، هو الود شجره قل

ولا سواقى الوداد نضبت وماءها أقل

أيام بنشرب عسل وايام بنشرب خل

وايام ننام فى الفراش وايام ننام ع التل

وايام بتحكم على ولاد الأصول تنزل

تأملتنى صفية بدهشة ثم سألت:

— أين الحقيبة والأرغفة؟

اندهشت أكثر، حيث لم أدر أين اختفت الأرغفة، وهؤلاء الذين التفوا حولنا بالعشرات، لاأثر لهم، تفرقوا فى لحظة.

قلت وقد تشابكت أيدينا:

— نحمد الله، نفذنا ما أوصتنا به أمنا، ونلنا بركات جدنا.

* * *

قبل أن نعود للبيت، ابتاعت صفية بعض اللعب، المتكدسة فوق عربات الباعة، وعلى الأرصفة وفى معظم الأركان، طربنا لأصوات الباعة:

طرطور للعيل، أراجوز بيتكلم، طبلة وزمارة، ويويو كمان.

سألت صفية بقلق:

obeikan.com

– من أين لك بثمن هذه المشتروات؟

أخرجت على الفور من جيب جلبابها، بضعة قروش وقالت:

– فتحت حصالتى، وجدت فيها خمسين قرشا، لا تشغلى بالك، الطرطور المزخرف بقرش صاغ، والصفارة بتعريفة، والطبلة والرق بعشرة قروش، أما الأراجوز فثمنه خمسة قروش.

أصابنا الرعب، لحظة أن خرقت أذاننا، صفارة الإنذار، راحت تدوي بأعلى صوت، أسرعنا بالعودة، بينما العشرات من الذين افترشوا الأرض شرعوا بالاختفاء بأحواش البيوت القريبة.

فى لمح البرق، مرقنا من بين الحشود، لنجد أنفسنا داخل المقام، احتضنت أختى بينما أتمم.. لنحتمى هنا مؤقتا، لمحنا سيدة تقترب من صندوق النذر، تحمل طفلا رضيعا، دست فى خرم الصندوق بضعة قروش وهى تقول..

– كراماتك يا ست يا نبوية، يا ام اليتامى، ملسى على ابنى واشفيه ولك دستة شمع.

بعض الرجال من ذوى اللحى، وآخرين ركعوا أمام المقام وقالوا بخشوع:

– اهزمى أعداء الله يا ست يا طاهرة، وكل غادر جبار، اخفى بهم الأرض، فى هذه الأيام المباركة، ملة اليهود وأعوانهم، يا رب العالمين، يا سميع الدعوات، يا قادر على كل شيء.

توقفت صفارة الإنذار، ساد المكان هدوءاً نسبيا، خرج الناس جماعات، إلى أماكنهم فى الخيم، لممارسة شعائرهم، أسرعت بصحبة

صفية متجهين إلى البيت، فى ركن ما راحت طلقات المدافع تدوى، وكأننا فى ميدان القتال، حيث تجمع أمام لوحة التنشين، عشرات الصبية والشباب كل فى انتظار دوره، ليصيب الهدف ويحصل على جائزة، وفى مكان آخر، وفوق إحدى تلال الدراسة القريبة من مقر المولد، نصب مسرحا صغيرا للأراجوز، وامتلأت ساحته بإناس من الصغار والكبار، جلس معظمهم على بعض الدكك الخشبية.

بالقرب من البيت، استوقفنا الحاج على، من معارف جدى رحمة الله عليه، ناولنا كوبين من القرفة، فى البداية رفضت صفية أن تحتسيها.

فى الحال ارتسم الغضب على وجه الحاج وقال:

— اشربى يا ابنتى، بركة من عمك الشيخ على، كل سنة وانتم طيبين، ذرية صالحة والنبى، بركاتك يا شيخ صاوى.

أمام مدخل البيت، لمحنا حشدا من الجيران، هرول معظمهم إلى الداخل، يتبعهم البعض الآخر، فى الحال، صعدنا درجات السلم، حيث شقتنا فى الدور الأول، تسرب الخوف إلى نفسى، ربما يكون حدث مكروها لأمى أو أخى وخاصة عندما عجزت عن الدخول، لكثرة المتجمهرين، وقد ساد هرج ومرج، سألت بعض الجيران عما حدث، قالت إحداهن:

— الشيخ أحمد عرافة الحى وصل.

* * *

انتابنى القلق وازداد الخوف فى نفسى، لحظة أن لمحت خالتى أم رمزى تقف متأهبة وفى يدها حمامة بيضاء، بينما تتطلع إلىَّ بإشفاق، وبجوارها رجل يرتدى ملابس مزركشة، غطت رأسها بطرحة خضراء اللون، وقد أخفت يدها اليمنى خلف ظهرها، وهى ممسكة بشيء ما.

اقتربت، هزتنى رعشة من الرعب، لحظة أن لمحت سكينا كبيرا بين أصابعها، قبضت عليه بقوة، بينما تركز نظرها على الشيخ كأنما تنتظر منه إشارة، وفى نفس الوقت تراقبنى من حين لآخر، بجوارها يقف رجل مسن، يحمل صينية من النحاس، وقد حفر الشر تجاعيد فى وجهه، نادت على أمى، لتلبى رغبة الشيخ أحمد.

بنفس مضطربة، حاولت أن أشق طريقى وسط جمهرة من الجيران، متجهة إلى شقتنا حيث ينتظر الشيخ إحدى المقاعد وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، فى لمح البرق أغلق أحدهم الباب، بينما شاب قوي البدن، فى ركن ما وقفت صفية خائفة، وقد سقطت منها اللعب، تكسرت وتناثرت قطعا صغيرة على الأرض، ازداد الخوف فى نفسى، لحظة أن رأيت العيون تتأملنى بدهشة وإشفاق، خلت ساعتها أننى سأذبح عقابا لي عما اقترفته من جرم، ربما التمرد على رداءة هذا الواقع وتعريته، أو لشيء لا أعرفه بعد!

اقتربت منى سيدة بدينة، يبدو أنها من مريدى الشيخ، وقد سحبت السكين من خالتى، راح نصله يلمع فى يدها كبريق الشمس فى عز الظهر.

قالت وهى تمسكنى من يدي:

— تعالى ولا تخافى، سيعقد لك الشيخ، للصلح مع الأسياد.

حاولت الإفلات، وقد تخلصت من يدها فى غفلة منها، منعتنى الحشود المتكدسة، حيث تحاصرنى من كل اتجاه.

اقتربت أمى وقالت فى خوف:

اسمعى الكلام يا ماجدة، ربنا يهديك يا بنتى، لاأحد يريد إيذاءك، الكل يرغب فى شفائك، لتنتبهى لدروسك، وتتخلصى من الكوابيس اللعينة اللى بتخوفك كل ليلة.

أمسك الشيخ برأسى، وراح يتلو آيات من القرآن، اعتقدت لحظتها أن الأمر سينتهى بعد هذه الجلسة الروحية، وخاصة أن السكين اختفى والحمامة أيضا، وفى ركن ما من الشقة، جلس مساعدا الشيخ يتناولان الطعام ويحتسيان الشاى، ما أن انتهيا، اقترب أحدهما منى وأمسك بى بقوة بينما الآخر، اتجه نحو الباب الخارجى وأغلقة بإحكام، ثم أحكم أيضا إغلاق شباك الصالة الكبير، والمطل على المصبغة، ازدادت حدة الخوف فى نفسى، وشعرت كأنما أهوى على الأرض، ولم تعد ساقاى تقويان على حملى، خاصة لحظة أن شدتنى السيدة البدينة من شعرى حتى تمتلك رأسى، وتسيطر علىَّ، وقد أخفت يدها وراء ظهرها، وما زالت ممسكة بالسكين.

قالت أمى مشفقة:

— تجلدى يا ابنتى، كل شيء لصالحك.

بكت خالتى بحرقة، اقتربت منى قليلا، حاولت إزاحة المرأة البدينة، بينما ترميها بألفاظ نابية وتصفها بالتوحش:

— اتركوها لتهدأ، وشها أصفر مثل الليمونة، حرام عليكم، مافيش فى قلوبكم رحمة، الدم هرب من عروقها، ثم نظرت لأمى بغيظ:

— طول عمرك يا اختى، قوية وقلبك زى الحديد، واللى فى دماغك لازم يتنفذ ولو على رقبتك السكين.

أسرعت أمى باصطحاب شقيقتها لإحدى الحجرات، أغلقت الباب وقد أخذت منها الحمامة، لحظتها أدركت أننى هالكة لامحال، وخصوصا عندما شعرت بسائل ساخن، يتسرب من بين شعيرات رأسى، كاد يغمى علىَّ لحظة أن لمست جبهتى حيث كانت ساخنة، وازداد الخوف فى نفسى، وكدت أهوى عندما لمحت بقعا من الدم فى كف يدى وفوق الأصابع، وصرخت بصوت مكتوم:

— جرحونى المجرمين.

اقترب فى الحال أحد مساعدى الشيخ أحمد، وهو رجل قوى البنية، يرتدى جلبابا أبيض، تكسو رأسه طاقية خضراء اللون، وقد أطلق لحيته، راح يهمس فى أذنى بكلام غير مفهوم، يبدو أنه من متطلبات السحر كما يقولون، ثم يتلوا بعض آيات من القرآن، ظل يكبر فى أذنى بصوت مرتفع؛ الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، تملكنى الرعب أكثر، وهويت على الأرض، لحظة أن أفقت، رفعت رأسى، وقعت عينى على ملابسى، وكم كانت دهشتى، حيث انتشرت بقع الدم فى أماكن متفرقة من ملابسى،

تحسست جسدى بيد مرتعدة، علنى أجد أثراً لجرح ما، لم أجد حتى خدشا، اقتربت السيدة البدينة، حاولت مساعدتى فى النهوض وهى تقول:

– تخافين على نفسك، المفروض نذبحك، على أى حال اكتفينا هذه المرة بذبح الحمامة البيضاء.

فى غفلة من الجميع، جريت على صنبور المياه، فتحته لآخره، ووضعت رأسى لأغسل ما علاها من دم، صرخت السيدة فى الحال، لحظة أن لمحتنى، وراحت تشدنى بقوة بينما تقول:

– لاتبطلى مفعول العقد، لابد أن يظل الدم عالقا برأسك حتى الصباح، ولابد من دهن مواقع الألم فى جسدك ببقايا الدم.

– لاحقتها أمى :

– لا تخافوا احتفظت ببعض الدم فى طبق صغير وبعد قليل، سنواصل تنفيذ طلبات الشيخ، وتكون نفسيتها ارتاحت شوية.

نظرت أمى للشيخ وسألته:

– نذبح لها مرة ثانية؟

– لاداعى، المهم نفذنا طلبات الأسياد وهذا يكفى .

تأهب الشيخ للرحيل، لحقت به خالتى وقالت له بلهجة سريعة:

– بنتى محروسة مريضة، وفى حاجة لرعايتك يا سيدنا.

سألها بلهفة وانتشاء:

– أين تقيم يا ابنتى؟

– فى كفر الغلابة بالمحلة الكبرى.

– لابد من زيارة خاصة.

أجابت خالتى فى سرور:

– مرحبأ بك وكل طلباتك أوامر.

* * *

انفض المولد، شعرت بهدوء ورغبة شديدة للنوم، وقد حمل النهار عباءته ورحل، بينما الغروب يزحف فاردا ستاره الرمادى على المكان، حاولت أن ألقى بجسدى المرهق على الفراش، أرقنى الخوف، فى وقت قصير انتهت أمى من طهو الحمامة، وهى وجبة الغداء الوحيدة لى، لايشاركنى فيها أى مخلوق، هكذا أمر الشيخ، ليتم الشفاء الكامل، رفضت فى البداية ثم استسلمت أمام جبروت أمى وتوسلات خالتى أم رمزى.

لم تكن أمى بالمرأة الضعيفة بل أرضعتها ظروف الحياة القاسية لبن الشراسة؛ حدث أن امتنع أخى شريف عن تناول الدواء لمرضه المفاجيء، بالطبع لم تتركه لحال سبيله، أمسكت يديه بعنف ولم يجد المسكين مفرا من بلع حبوب الدواء، كما تزغط البطة الذرة أو الفول ورغم أنه ظل يصرخ بعدها إلا أنها لم تبال.

اقترب الليل من المنتصف، جلست خالتى فى حالة خوف، لحظة أن جاءت أمى وقالت موجهة كلامها لي:

– انتبهى يا ماجدة، ستنامين الليلة فى الحجرة الصغيرة، بصحبة بعض الأشياء لزوم العقد.

ارتعدت مفاصلى وانكمشت فى ركن ما من الحجرة، حيث ساد الظلام اللهم بعض الشمعات المتناثرة، بين الأطباق المليئة بالأرزالمخلوط باللبن وبعض الحلوى، رصت بمساعدة خالتى، على منضدة صغيرة، بالقرب من سريرى، وفى إحدى الأركان وقف شريف وصفية، راحا يتطلعان لى بخوف، دفعتنى أمى لداخل الحجرة بينما تشير إلى هذه الأشياء:

– كل هذا ليكتمل العقد، لزوم الصلح مع الأسياد، أمر بها عرافة حينا، وما علينا إلا تنفيذ الأوامر.

لحظة أن توقفت عن الدخول، راحت تدفعنى بقوة إلى أن وصلت للسرير، ثم أسرعت بإغلاق الباب ورائى بإحكام، لتضمن بقائى طوال الليل بصحبة ما أمر به الشيخ، كما رفضت توسلات خالتى لها، بأن تبقى بجوارى حتى الصباح، ربما أحتاج لشيء ما.

بقيت ساهرة لوقت متأخر، بينما جسدى ينتفض رعبا، لحظة أن اقترب الفجر بدأت بالتدريج أنفض الخوف، حاولت أن أجذب أطراف النوم، ظل يهرب كلما تخيلت الدم، يتساقط من رأسى، وفى محاولة أخيرة، وقد ذاب الشمع لآخره، خطف النوم عينى للحظات:

فى داخل مستشفى كبير، رأيتنى فوق أحد أسرة المرضى، وفى حجرة تشبه إحدى حجرات شقتنا، وقد التف حولى بعض الأطباء، جاءوا خصيصا لتشخيص حالتى، راح كل منهم يتأملنى لحظات، ثم يتحدث مع بعض زملائه؛ قال أحدهم:

– المريضة فى حاجة إلى عملية جراحية.

فى الحال حملنى بعض المرضات على نقالة، وبدلوا لى ثيابى لتصبح ناصعة البياض، واتجهن بى إلى حجرة العمليات، وتم إجراء العملية دون إراقة الدماء.

نهضت مع أول شروق الشمس، وقد شعرت ببعض الراحة النفسية، ألقيت نظرة على المنضدة، كم كانت دهشتى، لحظة أن لمحت الشموع وقد ذابت جميعها، وتحولت إلى كتل بيضاء ذات أشكال فنية متنوعة، بينما أطباق الأرز باللبن، والحلوى بقيت على حالها، لم يمسها أحد وكم كانت دهشتي:

لماذا حاولت أمى إقناعى، بأن بعض زوار الأرض سيأتون من عوالم أخرى، وخاصة بعد منتصف الليل، أو عندما يقترب الفجر، ليشاركوني هذا الحفل، ويقتسمون معى الطعام وربما سيحضر بعض الملائكة.

فى طريق عودتى إلى البيت، لاحظت أن شخصا ما يشبه رمزى، يقترب منى، ممسكا بلفافة من الفلوس، يقول فى تمنٍّ بينما أبتعد عنه، خشية أن يلمسنى، وقد التقطتها يدي:

– انتظرينى ولا تهربى، لا أقوى على السير، اصدمت ساقى ببعض الصخور وجرحت ثم اختفى فى الحال.

نهضت فى الصباح الباكر، الشمس لم تشرق بعد.

حاولت استرجاع ما رأيته فى الحلم، وتملكتنى دهشة لحظة أن لمحت شبورة من الضباب، كست مساحة كبيرة من السماء

بينما الجو شديد البرودة، وقد تعريت من أى غطاء سوى ما يسطر مواقع حساسة من جسدى..

أقف على شاطيء بحر كبير ازدحم بالصيادين والشباك والقوارب والمراكب، راحت تتمايل بدون أشرعة، قفذ بعض السمك الكبير، هجم على الصغير منه والتهمه فى ثوان، بينما حاول البعض أن يفلت فى محاولة للهروب، فى لحظة رأيت أمامى ثعبانا ضخما، خرج من البحر يترنح، يبدو أنه عجوز ومريض، جريت لأحتبيء فى أقرب مكان حيث حجرة النوم، لحظة أن توقعت مهاجمته لى، دقائق وتسربت الطمأنينة لنفسى، عندما اكتشفت أنه مجرد لعبة مصنوعة من الجلد ذات لون أصفر، فى لمح البرق حملته ثم ألقيت به فى زحمة الأشياء المهملة حيث عشة الفراخ الخربة التى تطل على المصبغة.

أيقظنى صوت أمى، تذكرنى بمواعيد المحاضرات فى الجامعة، انتهزت فرصة خروج زوجها للعمل، وحكيت لها ما رأيت فى الحلم، مسحت شعر رأسى بيدها وقالت:

— شكرا لله ولأوليائه الصالحين، بركاتك حلت يا ام اليتامى، يا للى جدك النبى عليه الصلاة وأفضل السلام.

سألتها بدهشة:

— ماذا تقصدين؟

— مات العفريت ولن يزعجك مرة أخرى فى الليل، ولن يؤذيك، بركاتك يا شيخ أحمد، تلميذ جدك.

– وماذا عن رمزى وصرة الفلوس؟

– ابن خالتك يحبك بجنون ويرغب فى الزواج منك على سنة الله ورسوله، وكل همه أن يرضيك، وليحقق رغبته جمع كمية كبيرة من النقود وهى مهر العروس وجاء ليعطيها لك ليثبت لك صدق نواياه.

– كان مجروحا وعجز عن السير.

– سيعود بإذن الله، وتتم فرحتكما بعد الحرب، وقد يصاب بجرح والله أعلم ويحفظه من كل سوء.

أخذت طريقى إلى المكتبة للحصول على كرت، تركه لى أستاذ فى الجامعة، أوصاه عم عزت، ليوفر لى الكتب الدراسية مجانا، من إحدى مكتبات الجامعة، وسبق أن حصلت على جزء منها فى بداية العام.

لحظة أن اقتربت من مقر المكتبة، انقبض قلبى حيث فوجئت بإغلاقها بينما علقت ورقة بالباب، تفيد بأن صاحبها فى أجازة لمدة أسبوعين، لم أشعر بالخوف على مصيرى، بقدر خوفى على أن يكون أصاب هذا الرجل الطيب أى مكروه، وبنفس قلقة سألت أحد الباعة القريب منه، وهو أقربهم إلى نفسه، شعرت بالأمان لحظة أن أخبرنى بأنه سافر لعلاج إبنه الوحيد للخارج حيث يعانى من مرض فى الدم.

وقفت لحظات، مر شريط الذكريات، استعدت ما قاله لى فى لقائنا الأخيرقبل سفره؛ كان يحثنى على اختيار ما يروق لى من كتب، تكون نواة لمكتبة ثقافية قيمة، أستفيد منها فى حياتى فربما أصبح كاتبة فى يوم ما أو صحفية ماهرة، لاحظ ترددى

وخجلى، فى لحظات ملأ حقيبة كبيرة من القماش بمختارات من الكتب القيمة، لنخبة من أعظم الكتاب فى مصر بل والوطن العربى، والأجنبى أيضا، وحملها وسار معى إلى محطة الأتوبيس، وقبل أن نفترق وضع فى حقيبة يدى بضعة جنيهات، تعادل أضعاف ما حصلت عليه من أجر، مقابل ساعات قليلة، أقضيها فى المكتبة، فى البداية شعرت بالخوف وترددت فى أخذها، اقترب منى فى الحال واغرورقت عيناه بالدموع وقال:

– اطمئنى يا ابنتى، ربنا رزقنى كثيرا هذه الأيام، والسبب وجهك الصبوح وبسمتك المشرقة.

وإذا احتجت لأى شيء فى غيابى، فى إمكانك الاعتماد على عمك رزق يعمل بائعا للحقائب على الناصية المجاورة للسور.

أفقت على صوت عم رزق، يناولنى مفتاح المكتبة:

عمك عزت ترك لك المفتاح، ربما تحتاجين لشيء.

* * *

رحت أسرع الخطى، بينما الدموع تنهمر من عينىَّ، وصوت الرجل يلاحقني: تعالى يا ابنتى وسأفتح لك الباب، اصدمت قدماى بأجولة الرمال التى وضعت كسواتر، أمام معالم حينا الأثرية، على يمينى، يقف جامع الصالح طلائع شامخا، يتحدى قهر الزمن، وعلى يسارى بوابة المتولى، تشهد على عظمة تاريخنا العريق، وبطولات جنودنا البواسل منذ فجر التاريخ.

استقبلنى شريف بحماس وهو يمسك بالجريدة الصباحية، راح يقرأ بصوت عال:

- فى حينا الدرب الأحمر، حيث الأزهر والجمالية، والغورية والمغربلين وسوق السلاح وباب الوزير وغيرها، أكثر من مائة وثمانين ألف من سكان هذه المناطق، لايبخلون على الوطن بشيء، خرجوا جميعا ليعبروا عن وطنيتهم، منهم من انضم إلى معسكر الفتوة، ومنهم من التحق بمراكز التدريب وأنا منهم، وهناك من تبرع بالدم، حتى أصحاب الحرف والعمال، حملوا لافتات كتب عليها:

- احذر من جنونك يا جونسون.

- فى اقتحام العقبة قطع الرقبة

قلت له بحماس:

- فعلا يا أخى.. هذه اللافتات تزين سماء شوارع حينا والشوارع المجاورة، وهى دليل على عظمة الروح المتأصلة فى كيان هذا الشعب، كل الناس هنا التحموا فى جسم رجل واحد، وأصبحوا فى حالة تأهب ثورى، يذكرنى (بمحسن) بطل رواية (عودة الروح لتوفيق الحكيم)، جاء اليوم الذى سيعبرون فيه عن مشاعرهم النبيلة.

سهرت هذه الليلة إلى وقت متأخر من الليل، فى لحظات جذب النوم عينى، مر طيف ككابوس، اقتربت مخالبه من عنقى، كاد ينقض علىَّ ويخنقنى ، أسرعت بالنهوض، وشيء ما ظل يكتم أنفاسى، لحظتها أدركت أننى مريضة نفسيا دون شك، وأن ما

فعله الشيخ أحمد من طقوس ما هى إلا وسيلة لطرد الجان، والأرواح الشريرة من جسدى، كما اعتقدت أمى، وما زالت الحالة النفسية كما هى، ربما أكون مصابة بنوع من الهوس والاكتئاب، أو شيء من هذا القبيل، حاولت أن أعصر ذهنى لأتذكر ما قاله الدكتور الذى يدرس لنا مادة علم النفس فى الكلية.

فى إحدى المحاضرات، لم أتذكر، ألهمنى الله وعثرت على مسودات منها فى درج مكتبى، قرأت فيها تحليلاً لمرض الهوس والاكتئاب:

يصيب هذا المرض انفعال المريض ووجدانه، بنوع من المرض والنشوه إلى البؤس والاكتئاب، وقد يكون المرض هوساً فقط أو اكتئاباً

على شيء من الإمتزاج، وتتميز النوبات بتطاير الأفكار، مع ما يتبعه من تشتت الحديث كما تبدو من المريض بعض التصرفات الشاذة التى تتسم بالإنفعال والسرعة، مع ازدياد النشاط الحركى، كما يبدومرحاً وأشد ثقة بنفسه، فيقدم على تنفيذ ما يطرأ على ذهنه من خواطر، أن يحفل بالقانون أو القيم والأخلاق والتقاليد، وقد يصاحبه الهوس تهيجاً، فيكثر فيه اعتداء المريض على الآخرين، ولا يهمه سلامتهم ولا سلامة نفسه، وقد يسب ويكسر ما أمامه، وأحياناً ينقلب هذا النشاط إلى رغبة ملحة فى السيطرة وإصدار الأوامر، وغالباً ماتقترن هذه الحالة بنداءات العظمة والاستعلاء، فى إتيان الحركات الجنسية المبتذلة دون خزى أو إحساس بالعار، خاصة فى الحالات الشديدة التى يتعدى فيها المرض النواحى الوجدانية أو النواحى الذهنية فيصاب المريض بالهلاوس.

أحياناً يضطرب الوعى عند المريض بالزمان والمكان، كما يفقد

الاستبصار، ويصاحبه سرعة الاستثارة والإرهاق، والإنهاك والأرق واضطراب النوم، بالإضافة لسرعة ضربات القلب وفرط العرق، واحمرار الوجه واهتزاز الأطراف واضطراب الحيض لدى المرأة مع زيادة النشاط الجنسى والكتابات الغرامية.

ساد صمت، طويت الأوراق ووضعتها جانباً ثم رحت أتمتم:

الحمد لله، لا تنطبق علىَّ هذه السمات، فقط، أبدو عصبية بعض الشيء عقب تلك الرؤية المخيفة، لما يعترينى من تغيرات جسدية ونفسية، وتبدأ عصبيتى فى الزوال، لحظة أن تسكن آلامى وتزول الآثار المترتبة على الحادث، أحيانا أصاب بالأرق، ويهرب النوم من عينىَّ، وأظل ساهرة خوفا من تكرارهذه الحالة، إذا ما جذب النوم عينى.

فكرت كثيراً فى حالتى وانتهيت لقرار..

لابد من عرض حالتى على طبيب نفسى، وليكن الدكتور الذى يعطينا المحاضرات فى الكلية، فهو مشهور فى الأوساط العلمية، وله عيادة خاصة، وأعتقد أنه لن يثقلنى بنفقات كثيرة، بالإضافة لكونى طالبة فى قسم الدراسات الاجتماعية، فأنا عضوة أيضا فى جماعة آتون الثقافية التى يرأسها الدكتور سيف الدين، وأقوم بنشاط بارز، وكنت ضمن الخمسة الأوائل الذين فازوا منذ شهور قليلة فى المسابقة التى أقامتها الجماعة الأدبية وحصلت على جائزة فى الشعر، وتسلمت الجائزة منه شخصيا فى الحفل الذى أقيم لهذا الغرض.

* * *

تملكنى الأسى واغرورقت عيناى بالدموع، لحظة أن اقتربت من سور الأزبكية ولم أجد مكتبة عم عزت، وللأسف تم تحويل مكانها إلى معرض للحقائب، وقد اختفت الكتب ولم يعد لها أثر، رفعت نظرى إلى أعلى الباب ربما ألمح اللوحة الفنية الفريدة والرائعة؛ حيث القلل الفخار.. وما سجل تحتها؛ إشرب يا عطشان، لم يعد لها وجود هى الأخرى مما أحزنى وزادت حالتى النفسية سوءا، وخاصة لحظة أن قرأت العنوان الجديد الذى احتل مكانها، معرض السلام للجلود، ظننت فى البداية، أن عم عزت ربما عاد متأخرأ من السفر، وادخر مالا وفيرا، وبدل بالمكتب

المعرض، نتيجة لظروف الحرب، واستبعدت فكرة فقدانه الثقة بالثقافة والمثقفين، لأنه أحد عشاقها المخلصين، بخطوات بطيئة وخوف اقتربت من المعرض، بهرنى منظره حيث الديكورات الحديثة، تزينه فى كل ركن وبينما أتأمل وجوها لا أثر لمعانتها إذا بأحدهم يسألنى:

أى نوع من الحقائب ترغبين، سفر أو يد؟

أجبت فى حزن بينما أتراجع:

— لا هذا ولا ذاك، أبحث عن شيء آخر.

— لدينا نوع آخر مستورد.

— كانت هنا مكتبة، هل انتقلت لمكان آخر، وأين صاحبها، هل عاد من السفر؟

— عمك عزت.

– نعم أين أجده؟

نكس الرجل رأسه وقال فى حزن:

– مسكين توفى ابنه الوحيد، وباع المكتبة ليسدد نفقات العلاج، تبدل حاله، وأصبح لا حول له ولا قوة، طلى عليه هناك على الرصيف المقابل، لم يعد عزت الرجل المليء بالنشاط والحيوة، أصبح شبحا ياابنتى، و فى حاجة لمن يواسيه ويمسح دمعة عينيه.

قلبى ينخلع منى، وقد اضطربت مفاصلى، ورحت أجفف الدموع التى سالت بغزارة، لحظة أن اقتربت من الرصيف، لمحت عجوزا هده الألم وفعل الزمن به الأفاعيل، جلس القرفصاء، وقد أخفى رأسه بين ركبتيه، رفع رأسه قليلا، تدلت لحيته الطويلة، بينما شعره فى حالة من الفوضى نثر أمامه، فوق خرقة بالية بضعة كتب، هنا وهناك بشكل همجى، تآكلت معظم أغلفتها، والبعض بدت بدون أغلفة، راح يدخن سيجارة بيد والأخرى حاول الإمساك بمجلة قديمة، لم يفلح لإصابتها بشلل رعاش.

سقطت من عينىَّ دموع غزيرة، خشيت الاقتراب ربما يصاب بالإحباط أكثر، فى الحال بدلت طريقى، واتجهت لمحطة الأتوبيس الموصل للجامعة بينما أجر قدمى بصعوبة وأكاد أهوى، ترامى إلى سمعى صوت شاب، يقف على باب إحدى الأكشاك المتكدسة بالكتب، يقول فى ضيق:

– روّح يا عم عزت، ارتاح فى بيتك، ما دمت مريضا وغير قادر على البيع، قعدتك الشؤم دى هتسيء لسمعة الكشك، ولا شوف لك رصيف تانى، مش ناقصين بؤس.

لم ينطق الرجل بحرف، بل ألقى نظرة يائسة وخاطفة ثم راح يواصل التدخين.

وددت لو يسمعنى قبل الرحيل:

– سأعود إليك يا رجل يا طيب، فى يوم ما، لحظة أن أملك وسيلة مناسبة لمساعدتك، لم أنسى مهما حييت ما قدمته لى، وأتمنى أن أجدك حيا ترزق.

* * *

سألنى د. سيف أن أجلس على مقعد قبالته، وقد أعطانى حكيم العيادة حقنة منشطة للذاكرة، شرحت له من قبل سبب معاناتي:

– متى ظهر عليك المرض؟

– منذ ثلاث سنوات.

– هل تذكرين قريبا لك يعانى من نفس المرض؟

– جدى رحمة الله عليه، اتهمه البعض بأنه مريض بالهلوسة، كان درويشاً، يقضى كل وقته تقريبا فى رحاب أولياء الله الصالحين، يحفظ القرآن، ويعالج المسوسين بآيات من الذكر الحكيم، وهو جدى عن أبى.

– كيف، اشرحى لى بالتفصيل.

– أعيش حاليا مع أمى وزوجها وأخواى، هذا الزوج افترى على جدى واتهمه بالجنون، مبررا قوله بأنه رآه يهلوس ليلا،

ويتحدث مع نفسه كثيرا، والحقيقة أن جدى التقى هذا، يقضى معظم ساعات الليل، يتلو آيات من القرآن، ويردد أشعار كبار المتصوفة، منهم ابن الفارض، وإمام العارفين، ذو النون المصرى.

سألنى الطبيب بينما يجس النبض:

- كلمينى عن شخصية زوج أمك هذا.

أخذت نفسا عميقا ثم أجبت فى ضيق:

- عدوانى بطبعه، وخاصة لحظة أن يجدنى أمامه، سرعان ما يوجه طعناته لى، ولا يحتمل وجودى فى البيت، سأل أمى أكثر من مرة، أن تبحث لى عن مكان آخر يأوينى.

ساد صمت، حاولت التقاط أنفاسى، واصل الطبيب:

- أكملى، هل يضايقك فى شيء؟

- تزوج أمى بعد وفاة أبى، ولا أعتقد أنها سعيدة معه، يعاملها بقسوة، ويشعرها دائما بالذنب.

فى لحظة تلعثم لسانى، ولا أقوى على النطق، اقترب الطبيب، ربت على كتفى وسألني:

- أفصحى ولا تخافى، فالطبيب دائما يحفظ أسرار مرضاه.

- كنت جنينا فى رحمها، ولم تتزوج بعد من أبى، افتقدته أثر حادث أليم

- هل تعتقدين أن هناك من يغتصبك؟

obeikan.com

فى الحال، انتابنى شعور بالخجل، أعاد السؤال مرة أخرى، بينما يضع السماعة على صدرى، ويدق فوق ساقى بشاكوش من الخشب.

— يحدث أحيانا.

ساعدنى على النهوض، أسندت رأسى على وسادة مريحة وما زلت لم أغادر السرير، وبدأت أشرح:

— يهاجمنى أحيانأ حلم مفزع، أو ما يشبه الكابوس، يحدث ذلك مرة أو مرتين كل شهر، لحظة أن أصحو من النوم، أسرع بدخول حجرة المياه أكثر من مرة، واكتشف إفرازات مهبلية كثيرة، أفقد الوعى بما يدور من حولى، وأصارع لحظات من السكر، مع فقدان شهيتى للطعام، ولا أتناول فطورى إلا آخر النهار، أظل صامتة ساعات طويلة، شاردة فى لاشيء، لا أرغب فى الحديث مع أحد، ولا أجيب على أى سؤال يوجه لى.

— هل تنامين فى مكان آخر غير السبيت، أو يزوركم شباب أو رجال من الأقارب، يبقون للغد أو بعده؟

— لا لم يحدث أن نمت خارج بيتنا، وإذا زارنا أحد من أقاربنا فى القرية ، تصحبنى أمى لأنام بجوارها، ومعنا صفية، أختى الصغرى وتغلق الباب.

— ألم تعرضى نفسك على طبيب أمراض نساء؟

— عقب الحادث الأخير، شعرت بالخوف على مستقبلى، وتوجهت لطبيبة أمراض نساء، علت الدهشة وجهها بعد الكشف، وخاصة لحظة أن علمت بأننى لست متزوجة، ولا

توجد لى علاقات عاطفية أوجنسية بأحد، ناولتنى روشة علاج وأعطتنى ميعادا للاستشارة، لحظتها أدركت أن ما يحدث لى ربما يكون من جراء اعتصاب أو اعتداء جنسى، يقلقنى فقط.

— كيف يحدث هذا ومن الجاني؟!

— اطمئنى، ستزول آلامك بالتدريج، وكل ما أرجوه منك الآن أن ترتاحى قليلا، وتحدثينى عن الختان.

حاولت استعادة شريط الذكريات، تلك الواقعة والآلام المبرحة التى سببتها لى، عندما كنت أدرس فى التعليم الإلزامى، قررت أمى أن نسافر إلى قريتنا، لقضاء الإجازة الصيفية، ليتم ختانى مع ابنة خالتى، ولم أكن أعرف ماذا يعنى الختان؟ وهناك قالت لى جدتى العجوزلحظة أن سألتها عن معنى الختان ..

— فيه يا ضنايا حتة لحم زايدة، تحت الصرة، تقطعها الداية، علشان البنت تصلح للجواز وإلا تبقى زى الولد.

لم يطرق النوم عينى هذه الليلة، وبقيت ساهرة من شدة الرعب حيث راح يفزعنى من آن لآخر.

فى صباح الغد، استيقظت أمى وخالتى والجدة، ومع شروق الشمس بدأ بعض النسوة يترددن على الدار، وقمن بإعداد ظهر الفرن فى القاعة الكبيرة بالدور الأرضى، فى البداية قمن بدهان الجدران بالطين، ثم طليت بالجير، ورسم أحد عمال الطلاء، بعض الطيور والحيوانات والورود والعرائس الملونة، رمزا للبهجة والفرحة.

حاولت الهروب خلسة، لحظة أن تخيلت بأننى جرحت والدم يسيل من جسدى، وفى لمح البرق، كنت وسط الباعة فى سوق القرية المزدحم، حيث يقام مرة فى الأسبوع، يتردد عليه العشرات من القرويين لابتاع حاجاتهم من الطعام والكساء، وهناك من يقوم بطهور الأولاد الصغار، وتقام لهم الاحتفالات وسط الزحام، كأن يزف على حصان أو حمار وسط الزغاريد وذبح الأضحية، يقوم بها الناس من القادرين.

رغم شدة الزحام واعتقادى بأننى اختفيت عن أنظار أقاربى، لمحتني سيدة من اللواتى، كن يعملن فى الدار اليوم، أسرعت بإعادتى لألقى مصيرى المحتوم.

كانت محروسة إبنة خالتى ما زالت نائمة بجوار أمها، لحظات وخرقت أذنى صرخاتها حيث هزت جدران القاعة، جريت فى الحال دون أن يلمحنى أحد، لأبعد عن الزقاق ربما أتمكن من الاختفاء فى الحقول المجاورة أو تحت فروع الأشجار الكبيرة.

لم يحالفنى الحظ هذه المرة أيضا وحوصرت من بعض النسوة والأولاد، وحملت إلى الدار، غبت عن الوعى، لحظة أن أمسكن بى بينما الداية تحمى الموسى بحجر، أخرجته من حقيبتها، أفقت بعد وقت ما وبى من الألم المبرح فى مكان حساس، أسفل صرتى، بينما الدم يغرق ملابسي، أدركت لحظتها أن جزءًا من لحمى قطع ورأسى ثقيلة ولم أقو على النهوض، وكأن سائلا ساخنا يتسرب من بين فخذى، وقد امتلأت ساحة الدار بالعشرات من النساء والرجال والأولاد.

قال بعض القرويات وتداخلت الأصوات:

- مسكينة الصبية، أغمى عليها مدة طويلة.
- فقدت دما كثيرا.
- الموسى كانت مسنونة وحامية.
- الداية أم عبد الجبار، قلبها حجر صوان.

فى لحظة لملمت الداية أشياءها وغادرت الدار وكأنها فص ملح وداب.

ناولنى الطبيب روشة علاج ثم سألنى أن أكف عن الحكى، وأحاول الابتعاد عن أى مصدر أو الضوضاء، ولا أنسى زيارتى للعيادة.

***

شيء مخيف أسدل ستائره على أسرتنا، وخاصة أثر غياب أخى شريف، وقد ترك رسالة تفيد بأنه انضم لفريق من الشباب، للدفاع عن أرض الوطن، ولينتقم من العدو، الذى اغتصب أجزاء من أرضنا الحبيبة، وكان لغيابه تأثير سيء علينا جميعا، وخصوصا الوالد حيث أصيب بمرض السكر ولزم الفراش، ولم يعد قادرا على مزاولة العمل، ومما أثر على نفسه أيضا، ضياع كل مستلزمات عمله، كنجار فى دكانه الصغير الكائن فى إحدى الأذقة بشارع المغربلين حيث يعمل فيه منذ صباه، ظلت أمى تقاوم رغم مرارة الألم ؛غياب أخى وضياع مستقبله ومرض زوجها، رب الأسرة.

سألتها عن سبب ضياع محتويات الحان، أجابت بحسرة:

- اشتعلت النار فى الخشب كله من دواليب وآسرة وكراسى وغيرها وتخص زبائن، كل منهم دفع له عربون، وسيطالب بحقه.

سألتها بدهشة:

- من الفاعل؟

- بعض جيرانه من أصحاب المحلات المجاورة، يتهمون عمك سكر وهو يعمل نجار فى الدكان المقابل لوالدك، يقولون إنه ألقى فتيلا من تحت عقب الباب ليشفى غليله، دبر له مكيدة لأنه رفض يعطيه عدته ليستعملها، والمصيبة أن النار أكلت كل شيء حتى قطع الخشب الصغيرة (الكسر).

تنفست الصعداء.

هل هذا هوانتقام القدر؟

فكرت فى إبلاغ البوليس، فما ضاع هو حقنا، وعلينا ألا نتهاون أو نتنازل، منعتنى أمى بينما تقول بحزن:

لم يسكت أبوك وحرر محضرا فى قسم الخليفة، وللأسف قيد ضد مجهول.

بينما أتحاور مع أمى بجوار شباك الصالة المطل على المصبغة، لمحت بعض العمال، ينصتون باهتمام لصوت المذياع القوى، يبدو أن هناك أنباء هامة عن المعركة، سألت أمى أن تكف عن الحديث لحظات، لنسمع ما يذاع:

هنا القاهرة:

تمكن لنشان صغيران وصاروخان مصريان من إغراق المدمرة الإسرائيلية، إيلات، فى مياه بورسعيد، عندما اخترقت المياه الإقليمية المصرية، أطلقت عليها قواتنا البحرية صواريخها، وأصابتها بإصابات قاتلة فغرقت على الفور.

اصفر وجه أمى وكادت تهوى بينما تقول:

— ابنى شريف، أنت فين يا ضنايا، عايش ولا ميت.

انطلقت موسيقى عسكرية تلتها أغنية:

بلادى بلادى بلادى.

لك حبى وفؤادى.

بلادى أنت أغلى درة

فوق جبين الدهر مرة

يا بلادى عيشى حرة

وانهضى رغم الأعادي

* * *

أمسكت أمى لأسندها، ثم قلت لها:

— اطمئنى، شريف بخير، لاتقلقى من أجله، لا يحارب على الجبهة، بل يتعاون مع آخرين فى حماية المواطنين، داخل أرض الوطن، وهناك عشرات الشباب مثله سيعودون جميعا

obeikan.com

بـإذن الله.

غادر الوالد السرير واتجه ببطء نحونا، ثم سأل بلهفة:

– مـا الأخبـار، هـل انتهـت الحـرب؟ نفسـى اشـوفك يـا ابنـى قبـل مـا امـوت.

ربت على كتفه فى محاولة لتهدئته:

– اطمئن، شريف أخى، وسأبذل كل جهدى لمعرفة مكانه.

عـاد إلى فراشـه، وانخـرط فـى البـكاء، بينمـا ظلـت أمـى بجـوارى تنصـت لمـا يسـتجد مـن أخبـار.

فـى لحظـة انطلـق صـوت المذيـاع، يهـز جـدران بيتنـا القديـم بـل والبيـوت المجـاورة:

– نداء إلى شعب مصر..

– وراء كل جيش عظيم، شعب عظيم.

– إن الملايـين مـن هـذا الشـعب العظيـم، فـى الجبهـة الداخليـة، مسـتعدون ليـوم المعركـة، مشـتاقون لسـاعة الثـأر، ولا يمكـن للتاريـخ أن يسـجل لشـعب مـن الشـعوب قـوة فـى روحـه المعنويـة ولا روعـة مثـل التـى سـرت فـى شـعبنا، فقـد تحركـت قواتنـا المسـلحة، فـى اتجـاه الحـدود لمواجهـة العـدو، وإذا كانـت قواتنـا علـى الحـدود تمثـل درعـا للنـار والويـل والحديـد، فـإن الجبهـة الداخليـة هـى قلعـة الحصانـة والقـوة والنضـال.

انصـرف عمـال المصبغـة عائديـن إلى أعمالهـم، وقـد أغلقـوا المذيـاع،

نظرت لأمى مشفقة ثم قلت:

– هل سمعت، علينا أن نبقى أقوياء، ولا نخاف.

وقبل أن تلتفت لي انطلقت فى الحال صفارة الإنظار، هرولنا لنختبيء، تحت بير السلم، وقد سحبت أمى زوجها ثم صرخت فجأة:

– صفية فى السوق.

قالت جارتنا أم محمد بهدوء:

– لاتشغلى بالك ياأم شريف، سنختبيء فى مكان آمن، العمر واحد والرب واحد.

تمتمت أمى بينما ترتعد من الخوف:

– كلامك صح يا اختى، فعلا لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا.

– سلميها لله يا أم شريف، ربنا ينصر جنودنا، ويعودوا لنا بالسلامة.

انتهت صفارة الإنذار، عاد كل منا لمكانه، وراح يمارس عمله.

دقائق ودق الباب، الطارق صفية تحمل سلة الخضار، وبصحبتها رمزي، لم أصدق عينى، لأول مرة يأتى لزيارتنا مرتديا الزى العسكرى، وددت لو أحتضنه وأضمه لصدرى بكل ما أوتيت من قوة، أستمد منه دفء البطولة والشجاعة، وأسأله ليحملنى معه، أقف بجواره وأشد من أزره على أرض المعركة، أقدم له ما يقتات به وأمسح عرقه الغزير، الذى يسيل بغزارة من جبهته، من فعل شمس الصحراء المحرقة، حيث صارت سمراء ذات بريق، ،

طبعت أمى قبلة على جبهته، وسألته عن حال خالتى والوالد وكل أفراد العائلة فى الكفر.

قال بابتسامة حزينة:

- كلهم بخير، وانا فى طريقى إليكم لمحت شريف مع بعض الشباب يقومون بحماية بعض المنشآت الحكومية الهامة، قضيت معهم بعض الوقت، وقبل أن أفارقه سألنى أن أطمئنكم عليه، وسيعود فى وقت قريب.

لحظة أن سمع الوالد ما قيل، فى الحال لمعت عيناه، وهرول إلى رمزى واحتضنه بقوة بينما دموع الفرح، تسقط من عين أمى بكثرة

بينما تقول:

- الحمد والشكر لك يا رب.

أخذ رمزى مكانه بجوار الوالد وقال:

- كلنا فداء هذا الوطن يا عمى، فأرضنا هى عرضنا، ولابد أن ندافع عنها، ساد صمت، بدا حزينا كأنما فقد شيئا عزيزا.

ناولته أمى كوبا من الشاى، أعدته صفية، ثم سألته:

- ماذا بك يا ابن اختى، اشرب واعدل دماغك، باين عليك تعبان، واحكى:

أجاب بينما يضع الكوب جانبا:

- مجاهد زوج أختى محروسة اختفى، ولا نعرف عنه أى شيء، منذ سلم نفسه بعد العرس بأيام.

قال الوالد على الفور:

– لاحول ولا قوة إلا بالله.

همست فى دهشة بينما أنظر إلى الوالد :

– يبدو أنك عرفت الله.

بدأ التأثر على وجه أمى :

– مسكينة يا أمينة يا اختى، جت الحزينة تفرح ما لقيت لها مطرح.

سألت رمزى بإشفاق:

– ألم تحاول البحث عنه؟

– بذلت أقصى جهد، وصلتنا أنباء أنه مفقود، وأخرى تفيد بأنه أسر.

تركت الكفر فى مأتم، أمى مريضة، ووالدى لاحول له ولا قوة، لزم الفراش، محروسة ربنا يلطف بها، لحظة أن عدت فى زيارة قصيرة، وجدتها فى حالة يرثى لها، حبست نفسها فى مندرة مظلمة، مهجورة، كانت أمى تربى فيها الطيور، أفاد عراف الكفر، الشيخ بهلول، بأنها مصابة بلمسة أرضية، وهناك احتمال أن يكون أحد الجان قد تزوجها، فزوجها هجرها منذ فترة قصيرة، بالطبع لاأصدق هذه الخرافات، لكنها أمى، تبحث عن نواية لتسند الزير كما يقال.

قالت أمى بحزن:

obeikan.com

– نفذوا تعليماته يا ابنى، يمكن يكون فى إيده الشفا.

أجاب رمزى بضيق:

– يا خالتى، كفاية دجل وشعوزة، نعيش زمن الصاروخ والتقدم الصناعى، ولابد أن نتحرر من هذه الخزعبلات، حتى لايستغل العدو جهلنا ويحاربنا بعلمه وتقدمه.

وقبل أن يستئذن بالانصراف سألته أمى أن يتناول الغداء معنا، اعتذر لعدم وجود شهية لأى شيء، بالإضافة إلى أنه لابد أن يلحق بوحدته بسرعة البرق.

وقبل أن يرحل قلت له بابتسامة حزينة:

– اطمئن يا بن خالتى، سأزوركم دائما وأتابع حالة محروسة.

قال بينما يغادر المكان:

– أملى فيك كبير.

بدأت حالتى النفسية تتحسن، ولم يعد الحلم المزعج يقلقنى بزيارته إلا نادرا، لدرجة أن ملامحه كادت تزول، ولا شيء سوى خيالات لشبح لاملامح له، لذلك واصلت علاجى فى عيادة د. سيف.

سألنى ذات مرة عن شعورى عقب تناول الأقراص المهدئة..

– زالت بالفعل آلامى النفسية، ولم يعد الاختناق يحاصرنى، بل و أصبحت أكثر تفاؤلا ورغبة فى ممارسة حياتى.

– وماذا عن الحلم المزعج؟

– قل تردده علىَّ، فقط أراه كطيف يمر سريعًا دون تأثير.

– ما رأيك فى الحب والزواج؟

ساد صمت، شعرت بالخجل ثم أجبت بسرور:

– تمت خطبتى لابن خالتى، يحب كلانا الآخر منذ الطفولة.

– ما شعورك نحوه؟

– أرغب فى تأجيل ميعاد الإرتباط، لايوافقنى ويطالب بسرعة الزواج مما يدعونى للهرب، وفى نفسى الوقت أحتاج إليه كثيرا.

– لماذا ترغبين فى التأجيل؟

– لأطمئن على سلامة حالتى النفسية.

– هل تخافين منه؟

– أحيانا وخاصة إذا حاول الاقتراب منى، أتخيل أنه نفس الشبح الذى يزورنى ليلا سيعاود الهجوم، وربما يغتصبنى.

ساد صمت، راح الطبيب يدخن سيجارة، ثم سألنى:

– ماذا عن التغيرات البيولوجية، حدثينى بالتفصيل عن كل مايحدث لك وما تشعرين به.

– انتابنى الخجل وصمت قليلا.

اقترب ثم قال هامسا بينما يهز كتفى بيده.

– أنا طبيبك وكل ما تفصحين عنه سيحفظ فى سرداب الأسرار، وتأكدى أن بابه لن يفتح لأحد سواى.

obeikan.com

اعتدلت فى جلستى على الطاولة، وحاولت التذكر، وفى صوت منخفض:

— بعد زيارة الشبح بأيام قليلة، قد تصل لأسبوع، أشعر بتلقصات أسفل صرتى مع استمرار نزول الإفرازات ورغبة فى القيء، وأحيانا تؤلمنى ساقى، وأرى بعض الكدمات الزرقاء اللون، كما تؤلمنى ذراعى، كأن شخصا ما شدنى بقوة أو سحبنى بعنف، وغالبأ ما أعثر على نقطة زرقاء فى إحدى ذراعى أو ساقى كالتى تحدث إذا ما تعثرت ممرضة فى حقن مريض، وتظل الآلام فى المواقع الحساسة من جسدى لبضعة أيام، وأحيانا أصاب بصداع نصفى، وإذا ما حدث أن حاول أى رجل مغازلتى، أو الاقتراب منى، أكاد أصرخ فى وجهه على الفور، وتدفعنى رغبة شديدة فى صفعه أو الانتقام منه بأى شكل.

سألنى الطبيب أن أهدأ قليلا، وأكف عن الحكى، لحظة أن شعر بإجهادى، تناولت خلالها كوبا من عصير الليمون ثم قال:

— هل حكيت لأحد ما يحدث لك؟

أطلعت أمى مرة فقط على العلامة الزرقاء، للأسف فسرت وجودها بأنها من فعل الجان، وأننى ممسوسة، حيث ضربت لى الودع عندما كنت صبية، ونصحتها العرافة ألا تتركنى أنام فى الظلام أو أدخل دورة المياه فى العتمة، لذلك حرصت أمى دائما على أن تضع وناسة فى حجرة نومنا، وألا تترك الحمام مظلما، كما أوصتها العرافة أيضا بعمل صلح أو عقد لى من آن لآخر كوسيلة لترضية الأسياد.

سألنى الطبيب بدهشة:

– هل أمك متعلمة؟

– فلاحة نشأت فى الريف، وكانت شغوفة بالتعليم، حرص جدى على تعليمها فى كتاب القرية، كان يعمل ناظرا لعزبة أحد الباشوات، وللأسف لم تواصل، خافت عليها جدتى من معاكسات الأولاد فى الكتاب، نظرا لجمالها الفتان، وأسرعت بخروجها بلا عودة بحجة أنها ستتزوج، ولم تأت إلى المدينة إلا بعد زواجها من أبى الحقيقى.

– هل تحب أمك زوجها، أى والدك؟

– يقال إنهما تزوجا عن حب، وتجمعهما صلة قرابة، تتحدث عنه كثيرا، وخصوصاً أثناء غياب زوجها الحالى، تذكر دائما مواقفه النبيلة والتى تنم عن طيبة قلبه وأخلاقه الحميدة، ويكفى أنها لم تمد يدها لأحد فى حياته، ولم تعرف ما يطلقون عليها، الدلالة، إلا فى عهد زوجها الحالى.

– ماذا عن هذا الزوج؟

– يتشاجران دائما، والعلاقة الحميمة بينهما تكاد تكون مفقودة، ربما بسبب الفقر أو سوء معاملته لى أو شىء آخر!

سألنى الطبيب أن أنهض بينما يقول لى:

– نواصل فى اللقاء القادم، مع استمرار تناول الأقراص المهدئة، والمشروبات أيضا، وخاصة قبل النوم.

انشغلت لبضعة أيام بالمنتديات الفكرية لتثقيف الشباب،

ودفعهم للمقاومة ومساعدة الجرحى من الجنود، و تحفيزهم على التطوع للتمريض وخاصة البنات منهم، وما شابه ذلك.

حان ميعاد زيارتى للطبيب، وبينما أبدل ملابسى استعدادا للخروج فى الفترة المسائية، سألتنى أمى بقلق:

— ماسر خروجك ليلأ هذه الأيام، لم نعد نحتمل مصائب أخرى، وكفاية غياب أخيك؟

خشيت مصارحتها خوفأ من أن تمنعنى، حيث أمنت حياتى بمعرفة عراف حينا، وأى وسيلة أخرى فهى تبديد للوقت والمال، لذلك قلت لها:

— تعرفين يا أمى أننا فى حالة حرب، ولابد من تواجدى فى المراكز التثقيفية بالحزب وقصر الثقافة، لتوعية الطلاب، وحثهم على مساعدة أى فرد يتعرض للخطر، ومساعدة الجرحى وغيرهم، وتقام هذه المنتديات غالبأ فى الفترة المسائية.

فرت من عينيها دمعتان، وراحت تمطر جنودنا بدعواتها الطيبة، وبالنصر للمسلمين، وبعودة الغائب الصغير، شريف، حيث كاد قلبها ينفطر لأجله.

* * *

سألنى الطبيب أن أستلقى على ظهرى، أعطانى التمرجى حقنة منشطة للذاكرة، سبحت بعدها فى نهر عميق :

— هل تذكرين كيف كان والدك يعاملك وأنت صغيرة؟

— لم أتذكر أبى، أعتقد أنك تقصد زوج أمى؟

– نعم حدثينى عنه بالتفصيل؟

– أثناء فترة تعليمى الابتدائى، ذات ليلة بينما أحاول النوم، فوق سرير أمى، وقبل أن يعود زوجها من عمله، كانت ساهرة لدى بعض الجيران وبصحبتها شريف، كان رضيعا، إذا بباب الحجرة يفتح بهدوء وامتدت يد لتطفيء مصباح الكيروسين، لحظتها شعرت بخوف شديد وكدت أصرخ، لزمت الصمت لرغبتى فى معرفة ما يدور من حولى، لاحظت بصيصا من نور فى الصالة، قادم من المصبغة، تسرب من باب الحجرة، فتح الباب قليلاً ثم أغلق، وكم كانت دهشتى عندما رأيت شقيق زوج أمى، وهو مجند بالجيش ولا يأتى إلا نادرا، وبالطبع كنت من قبل أعتقد أنه عمى، تسلل ببطء ثم فتح ضلفة الصوان الخاصة بأمى، وسحب شيئا، وفى لمح البرق أخفاه فى طيات ملابسه، ثم اختبأ تحت السرير ذى الأعمدة النحاسية العالية، وبجواره منضدة صغيرة، وضعت أمى عليها الطعام الخاص بزوجها، كانت تميزه عنا، وإلا ينكد عليها عيشتها، فى لحظة كشف الجاسوس المتخفى غطاء، الحلة، وراح يلتهم بشراهة قطع اللحم المغموس فى الخضار بعد طهيه، وفى لمح البرق فتح الباب وهرب متسللا، وهو يمشى على الأربع كالقطط والكلاب الضالة .

استوقفنى الطبيب لحظة أن لمح الدموع فى عينى.

– انهضى ولا تجهدى نفسك، ناولنى كوب ماء وسألنى أن أكمل بهدوء :

– عـاد زوج أمـى مـن عملـه فـى وقـت متأخـر مـن الليـل، سـأل علـى الفـور عـن العشـاء، أيقظتنـى أمـى لحظـة أن عـلا شـجارها مـع زوجهـا، وقـد اكتشـف أن الخضـار بـدون لحـم، واتهـم أمـى بالإهمـال ولم تعمـل لـه أى حسـاب، فى الحال أقسـمت أنها تركت الوعـاء ممتلئـا بالخضـار وبـه قطـع مـن اللحـم، نظـر لى بغيـظ ووجه أصابـع الاتهـام لى. بكيـت بحرقـة وأقسـمت بـالله العظيـم بأننـى لم ألمـس الوعـاء، ولم أحـك مـا حـدث خوفـأ مـن العقـاب، بالطبـع لم يصدقنـى وراح يضربنـى بعنـف، لدرجـة أن الـدم سـال مـن أنفـى وفمـى، وممـا عمـق المأسـاة أن أمـى اكتشـفت ضيـاع مصـروف البيـت لمـدة أسـبوع، ممـا جعلـه يعـاود ضربـى مـرة أخـرى، وهـو يـردد بأننـى مفجوعـة وحراميـة، ولم يرحمنـى مـن بطشـه سـوى توسـلات أمـى وبكائهـا، ولم يتركنـى إلا بعـد أن فقـدت الوعـى.

بعد وقت من الصمت والهدوء، سألنى الطبيب:

– أين جدك الدرويش الطيب؟

– دائمـا يغيـب عـن البيـت، لأنـه يسـافر كثـيرا، للمشـاركة فـى إحيـاء الموالـد، وممارسـة طقـوس الدروايـش، فـى رحـاب أوليـاء الله الصالحـين.

اعتدلت فى جلستى، تنفست بعمق بينما أشعر بالإرتياح.

سـاد صمـت، انشـغل الطبيـب فـى قـراءة صفحـات مـن كتـاب باللغـة الأجنبيـة، لم أتمكـن مـن قـراءة عنوانـه، ألقـاه جانبـا وقـال :

– لم يتبقـى سـوى حكايـة واحـدة، مـا زالـت مخبـوءة فـى الذاكـرة، قـد تكـون لهـا علاقـة بالاغتصـاب، هـل تذكريـن، إذا شـعرت

بالإجهاد، نؤجل للقاء القادم.

— لدىً القدرة على الاستمرار اليوم.

— كلى آذان مصغية.

لم أكن فى حاجة لأن أستلقى مرة أخرى، اكتفيت بإسناد رأسى على الوسادة وحاولت التذكر..

— فى نهاية المرحلة الإعدادية، كانت تربطنى علاقة وطيدة بزميلتى ورفيقتى سهير، نشأنا معا فى نفس الحى الشعبى، ظروفنا الاجتماعية متشابهة، قضينا فترة التعليم الإلزامى فى مدرسة واحدة، فاطمة النبوية، صارت بيننا علاقة حميمة، حيث كانت تجلس دائما بجوارى، نأكل معا ونمارس بعض الألعاب معا كالكرة الطائرة وغيرها، ونستذكر دروسنا معا، أحيانا تزورنى فى البيت، وأنا كذلك، أشفق عليها كثيرا وأواسيها فى النكبة التى حلت بأسرتها، فوالدها لايفيق أبدا من السكر بشراهة مما دفع والدتها أن تترك له الشقة وقد يئست من أفعاله المريرة، واصطحبت أبناءها الصغار، ورحلت لتقيم فى بلدتهم، حيث باع كل محتويات الشقة من أثاث، للإنفاق على الخمور.

ظلت صداقتى بسهيرمستمرة على خير وجه، إلى أن حدثت الواقعة التى قسمت ظهر البعير، ففى إحدى زياراتى لها، حيث تقيم مع والدها، وكان الباب مغلقا، ولم تنتظرنى كعادتها، طرقت الباب بخوف أكثر من مرة، لم يفتح، اعتقدت أن لاأحد بالداخل، وبينما أهم بالانصراف إذا بالباب يفتح ببطء، ويخرج رجل، لم أره

من قبل، يشبه الغول، شعره منكوش وملامحه تنم عن الشراسة، بينما يطل الشرر من عينيه الحمراوين، فى لمح البرق شدنى نحوه بقوة، وأغلق الباب على الفور، ثم اتجه بى إلى حجرة داخلية وأسرع بالانقضاض علىَّ، كما ينقض ذئب جائع على فريسته، صرخت بأعلى صوت ولا أدرى من أين جاءت سهير، وبكل قوتها انتزعتنى من بين مخالبه، بينما تصرخ بصوت عال وهى مذعورة.

بالطبع تركت هذه الحادثة تأثيرا شديدا فى نفسى، رغم استمرار مودة سهير لى، وبقيت تزورنى من آن لآخر، خوفا من أن أكون أصيبت بسوء، وخصوصاً لحظة أن عثرت على بقع دم قليلة، عالقة بملابسى الداخلية، وسألت أمى بقلق، طمأنتنى بأنها العادة الشهرية.

مع مرور الوقت، يزداد خوفى من صديقتى، ولم تعد العلاقة بيننا تسير على ما يرام، ويبدو أن صرح صداقتنا، بدأ ينهار بالتدريج، وكأن ستارا من الضباب، حجب عن كلينا الرؤية، ولم يعد أحدنا يرى الآخر بوضوح، كما باعدت بيننا الأيام، ومرت الشهور بل والسنون، وما زال شبح والدها، يتراءى لى كوحش يرغب فى افتراسى، إذا حاولت الاقتراب منها، إلى أن علمت بطريق الصدفة خبر وفاته، والمؤسف أن سهير سلكت طريقا آخر ولم تواصل تعليمها.

ناولنى الطبيب روشتة علاج، ربت على كتفىً وقال:

— استمرى فى تعاطى هذه الأدوية واذكرينى.

أجبته بينما أهم بمغادرة العيادة:

— مهما شكرتك، لن أوفيك حقك.

الغريب أننى أشعر برغبة شدية للنوم العميق.

* * *

عقدت جماعة آتون اجتماعا طارئا، تحث فيه أعضاءها على بذل الجهد والتطوع فداء للوطن أو التبرع بالمال لصالح المجهود الحربى، أما الطالبات، فى إمكانهن الإلتحاق بمراكز الإسعاف والتمريض، فى مستشفى الجامعة أو قصر العينى، فالجنود الواقفون على خط النار، للدفاع عن أرضنا عن مصرالحبيبة، هم فى أمس الحاجة للمساندة، والمصابون وجرحى الحرب، ينتظرون فى المستشفيات أن تداوى جراحهم أيادينا الرحيمة.

قال رائد الجماعة بحماس:

— لم نقم وحدنا بمؤازرة الجنود وأداء الواجب الوطنى، بل هناك آخرون من عشاق هذا الوطن، قدموا أروَع الأمثلة، فى مقدمتهم، سيدة الغناء العربى أم كلثوم، وهى نموذج رائع للمواطن المخلص، المتفانى فى حب الوطن، حين تولت بنفسها جمع التبرعات من أفراد الشعب لصالح المجهود الحربى، ولم تكتف بذلك بل رأت أنها تستطيع بفضل ما لها من حب فى قلوب الناس، أن تقدم شيئا للرابضين على خط النار، حيث وهبوا أرواحهم لاسترداد الحق المسلوب، قررت أن تغنى من أجل المجهود الحربى فى كل محافظة حيث بلغ ثمن وصلتين غنتهما، ثومة، فى ليلة واحدة، أكثر من ثمانين ألف جنيه، بالطبع وجهت كلها لصالح المجهود الحربى، من جموع أثمان التذاكر التى بيعت، والذهب الذى تبرع به المواطنون.

لحظة أن أنهى الرائد كلمته، انتفض معظم الطلبة، وأسرعوا بملء استمارات التطوع، بينما الطالبات أبدين استعدادهن القوى للحصول على دورات تدريبية فى مجال الإسعاف والتمريض، وقلة منهن فقط، اتبرعن بالدم.

لم يكتف رائد الجماعة بما قاله، بل أضاف بأنه من الضرورى، عقد لقاءات تثقيفية مكثفة للتوعية، ومحاربة الإشاعات المغرضة، وبالطبع كنت ضمن اللواتى ذهبن للحصول على دورات الإسعاف والتمريض بمستشفى قصر العينى.

أيام قليلة مرت، وتخرجت الدفعة بتفوق، مارسنا خلالها فترة التعليم، كيفية الحقن وعمل الجبيرة للكسور، لحين إسعاف المصاب، وأيضاً تطهير الجراح، ولم يقلقنى شئ إلا خوفى من رؤية الدم؛ تذكرت مدرسة العلوم أثناء امتحان الصف الأول الثانوى، فى مادة الإحياء العملية، لحظة أن وبختنى عندما تركت الوعاء الزجاجى، وبداخله كلية الخروف، وأسرعت بمغادرة اللجنة، وقد ضاعت درجاتى فى هذه المادة، لم أنطق بكلمة، بل كنت أرتعد من الخوف، وكلما وقعت عينى على الماء الملون بالدم، أشعر بدوار وأكاد أهوى، لذلك فكرت فى الانسحاب .

قبل ممارسة عملى مع جرحى الحرب، تركت أول مصاب ينزف وغادرت العنبر على الفور، بعد فترة عدت لصوابى، وقررت تكريس جهدى لتضمين الجرحى، مهما كلفنى الأمر من متاعب، فكم يشعر الإنسان بالرضا والراحة النفسية، لحظة أن يقدم عملا ذا قيمة، لمن هم فى أمس الحاجة إليه، ربما كان ضعفى هذا فى الماضى البعيد عندما كنت صغيرة، الآن أصبحت قوية وخاصة وقد شفيت تماما

من معاناتى، مر أمامى طيف رمزى، وتمنيت لو أراه، وقد مضى على زيارته الأخيرة لنا وقتا طويلا، مما جعلنى أشعر بالقلق.

* * *

فى نهار أحد الأيام، عمت الفوضى، وملأ الضوضاء عنبر الجرحى، بل والعنابر المجاورة، وانطلق بعض المرضى فى اتجاه الشرفات المطلة على الشارع، لدرجة أن بعض الجرحى تحاملوا على أنفسهم، وشاركوا الجموع الغفيرة، وقد انطلقوا فى مظاهرة تنادى بسقوط الاستعمار الصهيونى، وتحرير أرضنا المغتصبة..

بلادى بلادى بلادى

لك حبى وفؤادى

مصر أنت أغلى درة

فوق جبين الدهر مرة

يا بلادى عيشى حرة

واسلمى رغم الأعادى

سألنى أحد المصابين عن الجرائد الصباحية، توجهت فى الحال لأبحث عن إحداها فى حجرة الطبيب النوباجى، وإذا بى أصطدم بها، كانت تجرى مهرولة بينما تحمل وعاء به أدوات جراحية، ربما تسرع لإنقاذ مصاب جديد، شدتنى ملامحها، لم تكن غريبة علىَّ، عدوت وراءها فى محاولة للحديث معها، ألقت نظرة خاطفة ثم وقفت لحظات بينما تقول فى لهجة سريعة:

– ماجدة، انتظرينى، سأعود إليك، هناك مصاب فى حاجة إلى إسعافه فى الحال.

لم أصدق عينى، هى صديقتى السمراء، النحيفة، خفيفة الظل، زميلة رحلة الدراسة فى التعليم الأولى، سهير.!

كيف تبدل حالها هكذا؟

لحقت بها بينما صوت المذياع، يتسرب ضعيفا من إحدى حجرات المصابين، كان عبد الحليم يغنى:

دمعتى ذاب جفنها، بسمتى مالها شفاه

صحوة الموت ما أرى، أم أرى غفوة الحياه

أين يأسى، لقد مضى ومضت مثله المنى

كل ما كان لم يكن وأنا لم أعد أنا

انتابتنى الدهشة للمرة الثانية ، لم أصدق لحظة أن وقعت عينى على رمزى، يرقد ممددا فوق أحد الآسرة يعانى من جرح فى رأسه وينزف، بينما الطبيب يخفى جزءأ من ملامحه، وقفت سهير بخشوع، تناوله بعض الأدوات الجراحية، اغرورقت عيناى بالدموع وبقيت بجوارهما إلى أن انتهى الطبيب من رباط الرأس، اقتربت فى الحال، تمنيت لو أحتضنه بكل مشاعرى، ربطت على يده الباردة والدموع ما زالت تسيل من عينى بغزارة

قال بينما يحاول النهوض..

– ماجدة، حبيبة قلبى، كيف حالك؟

– حمدا لله على سلامتك يارمزى، ارتاح ولا تجهد نفسك، كلنا بخير.

تبدل حال سهير وراحت تتطلع لكلينا فى ذهول، قلت لها وما زلت ممسكة بيد رمزى، وقد تسرب إليها بعض الدفء:

– ابن خالتى.

أضاف رمزى بابتسامة حزينة..

– وخطيبها وسنتزوج قريبا.

لاحقته فى همس:

– نعم يا عزيزى، لم تعد هناك قيود، تحول دون تحقيق حلمنا، أنتظر فقط إلى أن يتم لك الشفاء.

* * *

صحبتنى سهير لخارج العنبر، وقد تركنا رمزى ليرتاح قليلا على أن تعود بعد قليل.

قالت بابتسامة حزينة:

– لاتخافى، الإصابة ليست خطيرة، وفى إمكانه الخروج غدا أو بعد غد على الأكثر، سألتها بلهفة:

– حدثينى عن نفسك، لم أصدق عينى لحظة أن رأيتك، كيف حالك وحال والدتك وأخواتك، تكلمى يا صديقتى..

ساد صمت خيم الحزن على المكان، واصلت فى أسى:

obeikan.com

– مات أبى السكير بعد أن أفسد حياتنا، وتسبب فى مرض أمى، وهو أيضا المسئول عن ضياع صداقتنا، وفراقنا سنوات، وكان لذلك دور خطير فى مجرى حياتى، ربما لو بقيت بجوارى لما تبدل حالى للأسوأ.

على أية حال، أحمد الله وأشكر فضله، فالحرب طهرتنى ونسيت ما مر بى من آلام، وها أنا أكفر عما ارتكبت من ذنوب، ولم أجد أفضل من مواساة المرضى وجرحى الحرب والعمل على تخفيف آلامهم، وحتى لايموت أخوتى من الجوع وخاصة بعد مرض أمى.

دقائق وحضر أحد التمرجية، همس فى أذنى سهير ثم انصرف فى الحال.

التفتت لى وقالت :

– رمزى يريد التحث معك.

فى الحال كنت بجواره، تأملنى مليا، ثم قال وقد أمسك بيدي:

كونى بجوارى دائما، لاتبتعدى عنى، أنا الآن فى حاجة إليك أكثر من أى وقت مضى.

ربتُّ على يده بحنان وأجبته:

– لن أدعك وحدك وسأبقى بجوارك إلى النهاية.

حاول أن ينهض قليلا ليجلس، ساعدته ثم واصل.

– لن أرتاح ويهدأ بالى إلا إذا اطمأنيت على محروسة وشريف.

قلت له على الفور:

– زرتها منذ فترة، ثم انشغلت بالعمل مع المرضى والمصابين.

قال فى أسى:

– ما زالت فى القسم النفسى، سمعت أنها تماثلت للشفاء، وعلى وشك أن توضع مولودها الأول، أما شريف فقد التقيت به مرة بصحبة بعض الشباب المجاهدين، يبدو أنهم كانوا يجمعون تبرعات لصالح المجهود الحربى.

* * *

سحبتنى سهير للقسم النفسى، وللأسف لم نعثر على أى أثر لمحروسة بعد محاولات من البحث مع المرضات والأطباء، علمنا أنها نقلت لقسم أمراض النساء والتوليد، حيث أوشكت على الوضع، وهناك التقينا بأختى صفية وخالتى أم رمزى، كانت تبكى خوفا على ابنتها، وخاصة عندما علمت أن الولادة عسرة وقد تكون قيصرية.

هللت صفية بالفرحة لحظة أن لمحتنى، وهى تقول:

– شريف عاد يا أختى، لكن أفرولة كان ملطخا بالدم، سألتها بخوف ولهفة:

– هل أصابه مكروه؟

أجابت خالتى وهى تجفف دموعها:

– لا يا بنتى زميله استشهد أمام عينه وآخر أصيب، نتيجة

لسقوط قذيفة من طائرة العدو، بالقرب منهم فى منطقة القلعة.

وما زال شريف يهذى منذ عودته فى الصباح، وحالته غير مستقرة، لذلك جئنا به ليعالج فى قسم الأمراض النفسية، والحمد لله طمأننا الطبيب بأنها حالة اكتئاب نفسى مؤقتة وسيشفى قريبا.

بعد لحظات ارتفع صراخ، هز جدران عنبر الولادة، أسرعت سهير إلى هناك ثم عادت بعد لحظات، لتقول فى فرحة:

— محروسة وضعت ولدا جميلا.

حمل الليل أستاره ورحل، ومع أول طلوع للنهار، استعد الجميع لمغادرة قصر العينى، وقد غادر رمزى قسم الجراحة، وتوجه لقسم التوليد للاطمئنان على أخته، فى لحظات التف الجميع حول سرير محروسة.

قال رمزى بينما يقبل الطفل:

— نسمى المولود أمل.

لاحقته بسرور:

— اسم جميل، ربما يمحو ظلام السنين.

واصل وهو يضعه فى حضن أمه:

— يطلع الفجر على يديه، وتشرق شمس الحرية فى عصره.